

دار نشر الثقافة

تقدم

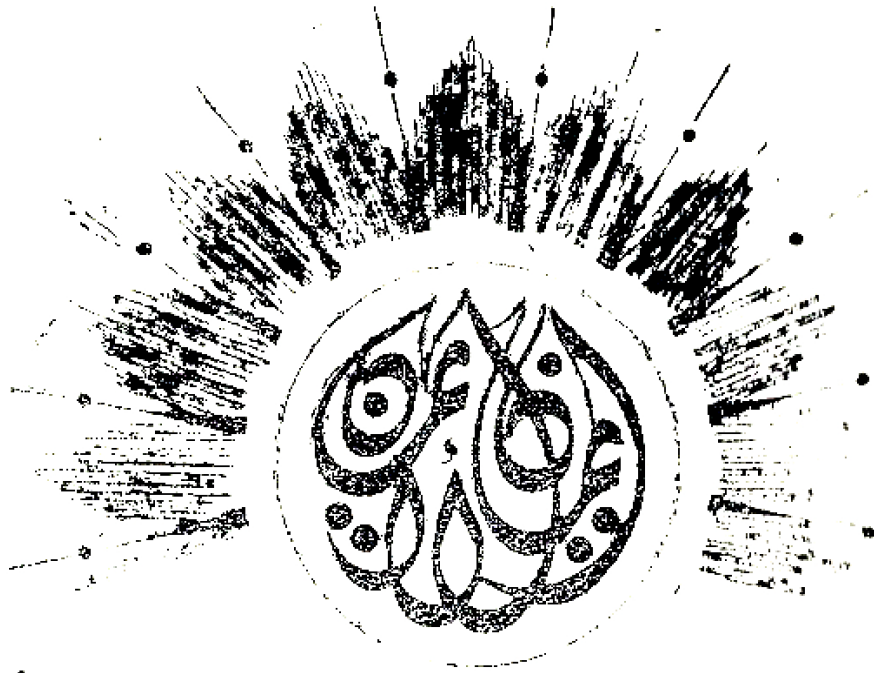
# إيمان و الإيمان

بقلم  
محمد الملا بلي

مطبعة الصاوي  
٢٤ شارع الكوراسي بجادين

# دار نشر الثقافة

تقديم



بقلم

صالح العاللي

مطبعة الصاوي  
٢٤ شارع أمكو داسو، عادي

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إيماني يلهمني فأكتب ، وإلهامي إيمان لا يمانى .  
وكلاهما لروحي مأرب .

فالي من يتسع قلبه للإيمان ويرغب ، أقدم إليه  
إيماني ، عساها تكون وسيلته إلى ما يطلبه

صبيحة

## أقدم إليك الآنسة جليلة

أرفع الشيخ الفرنسي قبعته وانحنى في احترام ، ثم مديده  
 لمصافح الآنسة قائلاً بصوت خافت بطيء بالفرنسية ما معناه  
 ( نشرفنا ) وكان المفروض أن يتجه صوب سيدة تحولت بكليتها  
 نحوه إذ راعتها شيخوخته المهيبة ووقاره الرزين ، ولكنه ظل  
 واقفاً أمام جليلة إذ خطف نظره شعاع عينيها الخادتين ، كأنه قوة  
 جاذبة مخطئة وظل في مكانه كلما خوذ مع أنها تحولت عنه لتأخذ  
 مكانها بعيداً بقرب صاحبة الدار . . وبالرغم منه شعر في التو  
 باحساس غامض يدنيه منها . . كأنها سر يجب أن يحله وتمعن في  
 وجهها الذي استرعاه . . أي سر هذا ؟ . . إنه يبدر نوراً في  
 هيلها وظلالاً على شفقتها وفي النور والظلال . . نغم قوى التعبير  
 فيه حنان ورغبة وفيه عمق وقوة ، هي قصيدة من الشعر تدبر عن  
 كل شيء . لأنها من غير عنوان . .

وظل في جلسته يختلس النظر إليها ليفسر معاني هذه القصيدة  
 المعسمة في هذه الطفلة . . وتكلمت فجأة . . فلما سمعها - لمح معاني  
 أخرى جديدة مهمة . . فأضاف إلى روعة القصيدة عذوبة اللحن



وتتم في صدره . . هي منهما . . قصيدة <sup>للخ</sup> والحق . . القوة في عينها  
خفيفة وفيها المندى بالسحر مطمئن . . هي خوف واطمئنان معاً . .  
كانت أقل الحاضرات زينة وتجيلاً وكانت بسرها جاذبيتها  
عليمة فلم تشأ أن تخفيها بالأصباغ ولم تحاول أن تستعين بالصناعة  
التي ابتدعها فن التجميل على لفت الأنظار إليها شأن لداتها من  
الفتيات اللاتي يعتقدن أن المرأة لا تجذب الرجل إلا بجمالها المكتسب  
وفي سبيل ذلك يبذلن كل ما يملكن من مال ويقضين معظم وقتهم  
إن لم يكن كله في تحسين ما يلائم رغبة العصر الحديث وهكذا  
أصبح الجمال في رأى العامة كأي لون من ألوان الحياة له قديم  
وحديث ولو علمت المرأة أن جمالها الأصلي في روحها لا جسمها  
وأن الروح هي التي تخفى على الجسم لون الجمال وقوته لو فرت المال  
الذي تبذله في التجميل المادى واستخدمته فيما يعود على روحها  
من فنة واستنارة وعمق . . لكن الذنب ذنب الرجل الذي  
يشجع الفتيات اللاتي لا عمل لهن غير تقليد نساء هوايود فالأغلبية  
من شباب هذا العصر تجرى وراء هذا الطراز متغاضية عما تشاهده  
روحاً من سحر وما يشتهيه قلبه من عاطفة وما تتطلبه رجولة  
من واجبات . .

يعرف الشيخ الفرنسى هذه الحقيقة لأن دراسته للفلسفة

واعتكافه عليها قربه من حقائق الوجود والكائنات وصلة كل  
منها بالطبيعة .

ومع أن جليلة لم تبالغ في تجميل نفسها مكتفية بمراعاة الذوق  
الفنى الجميل فى اختيار زيتها حتى باتت رمزاً للأناقة - فانها لم تسكن  
تعرف عن هذه الفلسفة الشئ الكثير أو القليل بل لم تفكر  
مطلقاً فى بواعث عدم تعلقها بمغريات صناعة التجميل ، لكنها  
كانت تميل بفطرتها إلى أن تكون طبيعية بقدر المستطاع وأن  
يبرز جمالها الطبيعى على تجميلها الصناعى . .

لذا أخذ الشيخ الفرنسى إذ تمثلت أمامه زهرة طبيعية ناضرة  
وسط باقة من الزهور الصناعية المنمقة . .

\*\*\*

كان ذلك فى منزل السيدة هدى هانم شعراوى التى أقامت حفل  
شائى للتعارف فى قصرها احتفاءً بمقدم مستشرق فرنسى جاء  
لزيارة مصر فى الشتاء رغبة فى الاستمتاع بجوها الجميل ولدراسة  
أثار الفراعنة وتاريخ مصر على ضوء حقيقتها ، وقد دعت معه  
هدى هانم جماعة من المصريين والأجانب لتوطيد العلاقة الروحية  
بين الشرق والغرب وتبادل الفكر والثقافة حيث أثبتت الدراسات  
الحديثة أن خير وسيلة لإصلاح الشعوب وانسجامها وتآلفها هو

تقارب الميول وتمـازج الأفكار وتآلف الأرواح وتجانس  
• تلعو اطف وكانت هدى هانم تعنى عناية خاصة بتركيز هذه الاتجاهات  
محالة جهدا لإيجاد وحدة إنسانية بين وطنها والشعوب الأخرى  
مضحية بما لها وجهها ووقتها ، ولقد أثبتت بمجهودها وتضحياتها  
أن المرأة المثالية جديرة بالزعامة - لا القومية لحسب - ولكن  
بالزعامة العالمية . .

ولقد لمحت معانى الزعامة الأصيلة فى صغيرتها جليلة على أثر  
زيارتها لها بدعوة منها عند ما قرأت لها بعض خواطر شعرية فى  
الصحف المصرية . ولقد صارحتها بذلك قائلة أنت ملهمة وشاعرة  
ومفكرة وقوية وهذه عوامل الزعامة الناجحة . وأعنى الزعامة  
رسالة عالمية تخلق من الأمم المتخاصمة أمة واحدة متآلفة . وأنا  
اليوم أعيد الطريق لزعامتك المرتقبة ، فأنت الوحيدة التى أنوسهم  
فيها أنها خليفة . على أن ذلك سر بينى وبينك لكى لا تغلق أبواب  
الرغبة فى وجوه الراغبين فى الزعامة وأرجو أن لا يقعد بك  
هذا التحفظ عن الاهتمام بمواهبك لئتم نضجها قبل أن تطالبك  
الإنسانية بواجبها المحتم عليك تنفيذه . . وسيكون ذلك . . عند  
ما أنتهى . . ودمعت عينها ثم غيرت مجرى الحديث إذ دخلت  
عليها إحدى صديقات هدى هانم .

\*\*\*

على أنها لم تبخل على جليلة بتزكية لم يعرف معناها غير المسيح  
الفرنسى عندما قدمتها إليه . . . إذ خالجه بلغة رجل ناهض المستنير  
تسكفيه كلمة عميقة عن انسان ليفهم عنه كل شيء . . . ولعل ذلك  
كان الحافز له على الرغبة في تعرف جليلة . . . ومع أنه بلغ من العمر  
عتياً لكن حيويته لم تزل تحتفظ بسمة الشباب وعينه العميقتين  
العميقتين كأنهما فوهتان بلوريتان تكشفان عن نور أزرق صاف  
كله حكاية عمر طريل فيه هدوء وثورة ورغبة وقناعة ولهنة مريحة  
لتعرف المجهول . . . وتخلط ظلال هذه المعاني فتبدو لك كأنها  
بحر هادئ تحت شعاع ضوء يخلط البصر، في لذة تدنيك من  
أحلام حلوة محببة . . . وفي عذوقه لثغة رائية تنبه الحس كأنها مس  
من كهرباء وشعره الأبيض الناعم المسترخى في استرسال فيدرع  
قلب ثائر. لكن نعومتها وترتيبه تنبئك عن تفكير حكيم ووضوح  
بارز قطع البحار واجتاز الوهاد محققاً رغبة في تعرف تاريخ  
مصر القديم ليقارن بين الرسوم التي صورها رجال التاريخ وبين  
الحقيقة المجهولة . . . أو لعل له رغبة أخرى مجهولة من يدري ؟؟  
أم كان لا بد له أن يحى مصر لشأن لا يعلمه إلا الله ومن يدري  
أيضاً ؟؟ .



أكبر الحاضرون عقله الجبار من حديثه الخاطف ولو أنه  
تعهد ألا يسهب لكيلا يخرج بهم من الجو النني الذي خلقته هدى  
هانم إلى الجو العلى الثقيل أو الفلسفى الغامض أو الفكرى الشاق  
ولعله تعمد ألا يشغل نفسه بالحديث لكي يتمكن من تأمل  
جليلة - التى رآها كأنها أفق للطبيعة جدير بالتأمل ليمحى عن  
السر المجهول فيها إنها فى كيانها - فتاة - ولكنها بالنسبة إليه نفسه  
فتاة فى ريعان الصبا الحالم ، روحها هفافة حلقت للوثبة الظافرة  
ونفسها تتجلى أمامك دائماً شاعرة ، أكسبتها حيوية واضحة .  
على أن الشيخ لم يحاول إدراك جمالها على وجه الدقة ، إذ  
أنه كفيلسوف له فى الجمال رأى يخالف ما تعارف عليه الناس  
كان يشتهى أن يعرف عنها ما تجمله عن نفسها وما يجمله العالم كله  
وحسبه مغنياً . . . أما هى فلم توله من نفسها اهتماماً يماثل  
اهتمامه بها ، ولا عجب فى ذلك . . . إذ قنطرة السن التى بينهما  
طويلة متعبة .

\* \* \*

تنتمى جليلة إلى أسرة عريقة ، توفى والدها وهى طفلة كأنها  
لم تره - فكفلتها أمها تحت رعاية خالها الذى كان يحبها حباً قوياً  
فنشأت فى كنفه وتحت رعايته مدلة مرعية ، وتعلت تعليمها مياهاً

لأن تكون إنسانة كاملة ناضجة وامرأة صالحة للأمومة والزواج  
إذ لم تكن الأم تطمع في شيء غير أن ترى وحيدتها وربة بيت  
وام أولاد سعيدة هنيئة . . ولما كانت أسرتها على وفاق فقد  
كان الجو هادئاً لا يحفز النفوس الصغيرة على الثورة إذ كانت الأم  
مثلاً أعلى للأمومة الصالحة فأكسبت أولادها وداعة نفس وشاعرية  
روح وصفاء سريرة ومتانة خلق وتمسكا بالإيمان .

وهكذا رآها الشيخ الفرنسي صورة صحيحة سليمة تعبر تعبيرة  
صريحة عن الجمال المصري الأصيل خلقاً وخلقاً ورأها تتخالف  
المعربات اللاتي رآهن وتعرف عليهن في بلاده وفي القاهرة منذ  
حل بها ومع أنه راح يحاور هذا ويحدث ذاك ويسامر هذه  
ويلاطف تلك لكنه كان مشغول الحس بهذه الفتاة يرمقها خفية  
ويلاحظ حركاتها وإشاراتها ليفهم السر المغري الكامن في نفسها  
فلما لاحظ أن الحاضرين مشغولون بتناول الشاي وهي مشغولة  
بتأمل مغيب الشمس من الشرفة دنا منها مخاطباً إياها بالعربية  
المتكسرة . . . أتتكم الآنسة الفرنسية ؟ ؟ .

فأجابت في إيجاز بالفرنسية : قليلاً .

قال : وأنا أيضاً أعرف العربية قليلاً ، وفي نيتي أن أتعلمها  
حتى أفوق أبناءها . . إنها لغة عذبة لكنها صعبة ! .

فانطلق وجهها الذي يحفظ بوسامة الطفولة ونقاوتها  
وابتسمت قائلة لـكن عذوبتها تهون صعوبتها ، ولشد ما يزهي  
أبناء العربية أن يعرفها ويحبها رجل مثلك ، إن ذلك يشرف  
العربية لا ريب ؟ ؟

قال في دعابة : وهل أنت قائمة بالقليل من الفرنسية إنها  
خطقت للجنس اللطيف - ولو شئت تحديد التعام لجعلتها لغة هذا  
الجنس لأنها لطيفة كلطفه . .

قالت باسمه : لست أدري أيهما تريد إكرامه . . جنسنا أم  
لغتنا ؟ وماذا يتكلم رجال فرنسا إذن ؟ . .  
قال : العربية .

قالت : آه هذا جميل . . ثم أردفت بصوت متكسر متواضع  
لقد ما أرف على عمر مضى لم أرتشف فيه من ينبوع الثقافة  
الفرنسية [ وضحكت ] اللطيفة ما يشعرني بروعة حياة ماوراء البحار  
سامح الله أدلي لكم كنت أتوق إلى أن أسافر إلى هناك لأتعلم علومهم  
وأأنهل من مناهلهم وأطرق متنهدة في مراودة - ثم أعقبت لم  
يعد هناك أهل . .

فما طعها : أوه . . أمامك عمر طويل . . إنك مازلت طفلة  
فابتسمت في سذاجة قائلة : طفلة ! لقد بلغت الثامنة عشرة منذ أيام

هل إننى بدأت فى عمر الكهولة وضحكت . . .  
فضحك بدوره قائلاً : إذن لن ينجباني أن تكونى أستاذتى  
فى العربية ، وأظن أنه لا مانع عندك من أن أكون أستاذك  
فى الفرنسية ؟ . . .

فطربت وتهلل وجهها وقالت : يسعدنى ويشرفنى أن تكون  
أستاذتى وستجدنى تلميذة طيبة ، أما أنا فليست كفتاً لأن أكون  
أستاذتك . . .

فنظر إلى هازأ رأسه قائلاً : إنك تلميذة متواضعة ، حسناً  
كى لا يفسد الغرور تعاليمى ، إن الصغار فى هذا العصر يحسبون  
أنفسهم كباراً بما يعرفون من قشور المعرفة . . . والذين وصلوا  
إلى تعرف لباب الحكمة يعتقدون أنهم مازالوا صغاراً أو أطفالاً ،  
فاعترافك هذا يشجعنى على تعليمك ، إذ أرى زرعى سيكون فى  
أرض خصبة مهيئة لنماء أطيب الثمار . . .

فأقبلت عليه قائلة : أهل يمكن أن أجيدها كأحد أبنائها حقاً ،  
أقرأ وأكتب دون الاعتماد عليك مثلاً . . . متى يحى هذه  
الوقت متى ؟ . . .

فابتسم قائلاً : وسوف تؤلفين وتحاضرين أيضاً . . .  
قالت : أوه . . . هذه أحلام



قال : ولم ، مادامت رغبتك مؤكدة واستعدادك موفوراً  
ومواهبك أصيلة . . . فقط يعوزك الصبر والتركيز .

قالت : أخشى أن أكرهها بعد - حين كما كرهت الانجليزية .  
وأستطيع أن أصرحك ، لكي تعالج هذا المرض - كما أسميه  
إننى لا أقبل على تعلم علم إقبالا مطلقاً إلا إذا أحسست بقوة روحية  
تدني منى . . . ولقد كرهت الانجليزية وتحولت عنها إلى الفرنسية  
لأنى كنت أكره مدرستها الانجليزية - مع أنها كانت مصرية -  
لكنها كانت جافة الطبع قاسية في معاملتها لا تترفق بنا ولا تحاول  
أن تبسط لنا المعقد وقد ظننت يوماً لئلا تفكرى أن الذنب  
ذنب اللغة فهى كاهلها . لغة ظلم واستعمار تفرض نفسها على غيرها  
فرضاً ، وقد ساعدنى على تجسيم هذه الفكرة اشتعال نار الحماسة  
الوطنية وما يكتب فى الصحف عن الانجليز . . . ولطالما صارحت  
مدرستى - وأنا معاقبة - لماذا نتعلم لغة أمة مستبدة ظالمة . . . أليس  
فى ذلك تيسيراً لها لتوطيد الاستعمار ، لماذا لا نتعلم الألمانية أو  
الفرنسية . أو الروسية كلغة أساسية بدل هذه اللغة . . . إذا كان  
الغرض منها الاستفادة من علومهم ومعرفة إنتاجهم الأدبى والفنى  
والصناعى والعلمى والاقتصادى فلا أظن - ألمانيا - مثلاً دون  
إنجلترا فى هذا الشأن . . . بل التاريخ العملى يثبت لنا - مثلاً -



أن ألمانيا سبقت إنجلترا وفاقتهما في الاختراع والفن والتجديد  
وهذا ما يعوزنا ويجب أن تعلمه . . وفرنسا مثلاً لا تقل عن  
إنجلترا في بعض الشئون . . ولا أكتفك أن ذلك بلغ مسامع  
ناظرى الانجليزية . . إذ طلبت من المدرسة وهى مارة علينا أن  
تقل إليها ما أقوله بالضبط، ولقد كانت المدرسة أمينة - فنقلت  
إليها بالضبط وضوء عقابى، وكتب اسمى فى سجل الثائرات ،  
مع أنى كنت أتكلم عما يحول فى ذهنى وما تأثرت به من أقوال  
والدق عند ما جئتها يوماً متأخراً وعلمت أن السبب بلادق فى اللغة  
الانجليزية . . وطبعاً كنت فى سن التاسعة من عمرى لا أعرف  
من السياسة غير ما نردده من الهتافات . . تحيا الحرية . . يحيا  
الاستقلال . . يسقط الاستعمار . . الخ ذلك . . على أننى  
الآن فهمت أن الثورة كانت متأصلة فى نفسى واستجابتى لها كمينة ،  
وتهدت فى حرارة مردفة . . غدا عندما تعلم عنى مالا تعلم اليوم .  
تدرك أن فضج ذهنى فى سن مبكر آذانى ، ولكن هل كان لى  
غير ذلك ؟ . لا أظن . . فربت على خدها فى حنو أبوى قائلاً:  
يا بنتى . . أنا علمت منك عنك فى هذه اللحظات حياتك كلها وكل  
ما يتصل بعقلك وحسك . . وروحك . .

وهنا اقتربت منهما إحدى السيدات البارزات فى المجتمع

وعاطبت السيد بالفرنسية الفصحى ما معناه ، أراك نسيت وجودنا  
بهذه السيدة ..

فنظر إليها نظرة خاطفة وقال : إننى أعرفها من زمن ولّى معها  
حديث فمذرة .

فانظرت إليه السيدة فى كبرياء وانسحبت وسمى تضحك مغممة  
بالفرنسية ما معناه . . . أنت حر . . .

دهشت جليلة لرده ، إذ كيف يكذب رجل وقور مثله . . .  
وقد فهم ما دار بخلفها فقال : غداً تعلين يا ابنتى أن الأرواح  
تتعارف قبل تعارف الأجساد . . . ولاح له أنها لم تفهم جيداً  
ما يعنيه فقير مجرى الحديث لكى لا يضايقها مردفاً : أين تقيم  
الآنسة ؟ . . . قالت : فى بنها

قال : ظننت أنك تقيمين فى القاهرة  
قالت : إنها قريبة منها . تبعد ثلثى ساعة وتعتبر كضاحية  
من ضواحيها

قال : وكيف إذن تتقابل ؟ .  
قالت : آتيك كل أسبوع مرة . . . وإن شئت تبادلنا الزيارة  
وسوف أصرح خالى بالأمر ، ولن يمانع ما دمت أجنبياً ، ثم  
نخجلت من تصريحها فتلعثمت وشاءت أن تشرح مرماها ، فصعب

عليها ، على أنه لاحظ بذكائه ما جاش بخاطرهما فابتسم وهو يربت  
على يدها في حنان الأبوة قائلا : أحب أن تشعرى نحوى بما  
تشعرين به نحو أستاذ مصرى ، ينتقى إليك بالدم واللغة والجنسية ،  
وأحب أن تعرفى أيضاً أن الانسان الحى يجب أن يكون أخاً  
لأبناء الإنسانية على اختلاف جنسياتهم وألوانهم وأديانهم  
ولغاتهم . . . ومن أجل ذلك يسعى رجال الفكر فى التوحيد بين  
الشعوب فكراً وحساً ولغة . . .

ارتاحت جليلة لهذا الشعور المثالى النبيل ، . ونظرت إليه  
باسمعة فى اطمئنان . وشاعرة بأن هذا الشيخ الاجنبى قريب الى  
روحها حقاً ، إذن فنطقه سليم ولاشك أنها ستأخذ من فلسفته  
الرياضة أصدق ما أخرجته القريحة البشرية ، وتمنت لو أنها تجيد  
الفرنسية لتظهر له مبلغ إعجابها به ولاكنها سكنت حياء لعجزها .  
وشاء أن يتفكه معها ليطيل الحديث فقال : ولماذا يفضل  
خالك المدرس الاجنبى على المصرى ؟

قالت . - تكلفه الجهالة متعمدة الهروب من الحقيقة . - الاجنبى

يجيد لغته عن المصرى . .

فنظر إليها بمعنى - تكذابين - وقال : قولى الحق ، ليس هذا  
هو السبب فقد ثبت من نتائج الامتحانات العامة فى اوروبا أن



المصري يجيد اللغة الأجنبية - إذا شاء - أكثر من أبنائها وفيهم من برز في اللغات بعبقرية ونبوغ .

فأطرقت مفكرة عماها تستطيع خلق جواب يرضيه ثم غلبتها شجاعتها وصراحتها فقالت والحفر يغلب عليها :

قد تحدث صلة بين المعلم المصري والتلميذ وكثيراً ما حدث ذلك ، المهم أن هذه الصلة تحول بين تحقيق النتيجة المرجوة من التعليم

فابتسم قائلاً : وما الضرر ؟ قد يكون ذلك مدعاة لتأسيس أسرة طيبة تنفع الشعب والمجتمع

قالت : صحيح لكن الأهل ينظرون إلى التعليم بمنظار لا يتعدى ، فإذا تعدى مهمة التعليم إلى مهمة أخرى مهما سميت . . . كان في عرفهم إثمًا . . .

قال : هذا بحث طويل على كل حال . أرجو أن أساعدك على معالجته . فكم من أخطاء ابتدعها التفكير القاصر والإحساس المريض - ومنها ما ذكرت - ولو أننا تركنا الحياة تسير وفق ناموسها الطبيعي دون أن نلتوى بسبلها ونتعرج بأساليبها ونشوه أخراضها لكي نخلق جديداً نفاخر أننا ابتدعناه وسميناه قيوداً وأرضاعاً باسم المحافظة على الشرف والكرامة ، لكانت الحياة



بفطرتها سليمة بعيدة عن العوج والالتواء والشر والفساد تأخذ طريقها المرسوم لها منذ الأزل رغم أنف الزمن .

وهنا انتهى مطاف هدى هانم التي كانت تجالس كل فريق من المدعويين والمدعوات بعض لحظات لتحبيهن وجاء دور الشيخ وجليلة . فأخذت مجلسها بجانبها وقد بدأت الشيخ الحديث بلطفها وكياستها قائلة : لقد فازت جليلة بالجائزة . فقال : أى جائزة لهنها . فابتسمت في دعابة حلوة مردفة . . جائزة - السيد جو بتر - ففهم السيد بعمقه مرماها ولم تفهم جليلة ، فقالت في تعجب : أنا ؟ فقالت هدى هانم : او لم تفوزى بوقته كله وهو ذخيرة وحلية ، تفهمت جليلة وقالت : صحيح أنا فخورة به ، فأعقبت هدى هانم وأنا واثقة أنه سيجد عندك ما يرجوه بما يعتز به جنسنا والتفتت اليه مردفة إنها شاعرة

فابتسم وهو يقول بالفرنسية : في الواقع إنها فتاة مدهشة ، يخيل إلى أن مجموعة خواطرى وأحلامى وعواطفى خرجت من أعماق مجسمة في صورة هذه الساحرة ، فضحكت هدى هانم طويلا ثم التفتت إلى جليلة قائلة : لقد ربحت كنوز الدنيا كلها يا عزيزتى فهنيئاً لك ، ثم ربت على خدها في حنان وحب مردفة ، أنت تستحقين كل إعجاب وحب ، وتحركت لتحبي غيرهما ولكن

أوقفته السيدة اقتربت منهم مخاطبة هدى هانم بالهجة المغيظة الخائفة  
يجب ان تساعدني يا هدى هانم على تعلم لغتنا بدل ان نخجل من يجهل  
الفرنسية من الحاضرين . وانضم اليهم رجل تفنن في إبراز التصاني  
ليقترب إلى نساء المجلس وكان حاول أن يغري جلييلة فأخفق إذ  
أعرضت عنه لأنها تكره الكلفة والصناعة في كل شيء . ولذلك  
انتهز هذه الفرصة ليغيظ جلييلة حيث فضلت أجنبياً عليه فقال :  
مع الهانم الحق لأن المصري في الخارج يحترم لغة الشعب الذي  
يعيش معه ، ولا يتكلم إلا بلغة هذا الشعب ، فلماذا لا يحترم  
الأجنبي قوميتنا ولغتنا كما نحترم نحن قوميتنا ولغتنا في بلاده ؟  
وشامت هدى هانم أن تلتطف من حديثه ، وتخفف من وقع  
جراته فقاطعته مخاطبة الشيخ الفرنسي - إن فلسفتك هي التي  
أباحت لهم الحق في هذه الصراحة لا اعتقادهم أنك رجل حر مثالي .  
فابتسم الشيخ في لطف ابتسامة تتم على أنه لم يغضب كما ظنوا  
بل أعجب بصراحتهم ووطنيتهم وقال ما معناه : إني لشديد  
الاعجاب بهذه الغيرة القومية وأقدر شعوركم الوطني الصادق ،  
وأعدكم أن أراكم في فرصة أخرى وأتحدث اليكم بلغتكم الحلوة  
العذبة ثم انتصب قائلاً : بعد أن نظر في ساعته ، أراني مضطراً  
الآن ، لترك مجلسكم الطروب الطريف لأنني على موعد مع صديق

وحياهم وانسحب في هدوء وهو يحول ببصره باحثا عن جلييلة  
البحيية ، ولما لم يقع نظره عليها ظن أنها خرجت مضطرة فأسف  
على خروجها دون أن تحييه وقبل أن يعطيها عنوانه أو يعرف  
عنوانها ، وفسر خروجها هكذا خفية لما حدث من السيدة  
المتغطرة وكان قد لمح في نظرات الرجل الذي هاجمه بعض معاني  
موجهة إلى جلييلة - لا تسر - فظن كذلك أن ذلك من بواعث  
خروجها أيضا . ومع ذلك لم يغفر لها في أعماق هذا النصرف  
وانسحب يكظم غيظه ويسأل نفسه ، أيمكن أن تكون قليلة الذوق  
إلى هذا الحد ؟

وتمشت برفقته هدى هانم لنودعه حتى الباب . وبينما هي  
تحدثه عما يهمه في الاجتماعات المصرية قوعات حديثها فجأة وهي  
تشير بيدها نحو الحديقة قائلة : انظر . ونظر حيث أشارت ، فوجد  
جلييلة مشغولة باقتطاف بعض الزهور ، فاتجه صوبها في حذر  
ولكنها لمحتة قبل أن يقترب منها ، فهرولت إليه في طلاقة الطفولة  
الوديعه البريئة ، مبتسمة في مرح قائلة بصوت ناعم أكسبه تعثر  
لهجتها الفرنسية خفرا بديعا - أيقبل أستاذي تحية تليذته ،  
وقدمت إليه باقة من زهر النرجس وقبل أن يتحدث قالت هدى  
هانم : أنت أنانية يا جلييلة ، قولي انها تحية مصر له . . ففجئت

الفتاة وأطرقت ثم استردت شجاعتها وأعقبت : إن تحييتك له خير  
هدية لمصر ، فأنت ممثلتها الأولى ، وهنا أشفق الشيخ عليها فأردف  
أعتبر ذلك تحية منى إلى هدى هانم تستحق الإعجاب ، على أنى  
أرى أن مصر أسمى وأجل من أن تقدم تحيتها لى ، أنا العبد أقدم  
خضوعى وحبى لمليكى مصر

أعجبت هدى هانم لهذه العاطفة الكريمة فقالت : إنك  
تغرينا على حب المغالطة ، واعتذارك عن جليلة بهذه الروح النبيلة  
جدير بالتكريم منا .

فابتسم الشيخ وهو يصالحها مودعا بيدينا أردفت هدى هانم ،  
علك لا تندم على هذا الوقت الذى قضيته معنا ، فأنحنى الشيخ وهو  
يقول : لا أحسبني نعمت بوقت كهذا ؟ أعتقد أنها فرصة ذهبية  
ستلهمنى الشيء الكثير فيما تبقى من عمرى ، وصالحها ليخرج ثم  
التفت إلى جليلة التى سارت بجانبه حتى الباب الخارجى قائلا ، :  
أيمكن أن أراك غداً فى الساعة الخامسة ، وناولها بطاقة باسمه  
واسم الفندق فوافقت دون تردد ، وافترقا على أمل أن يلتقيا  
فى الميعاد .



٢

لم تكن جليلة تهتم - كما تعودت - إلا بأن تقرأ مجلة  
أو كتاباً أو تبرز أو ترسم أو تعزف على البيان شأن لداتها في  
هذه السن ، حيث يستفدن من الحياة بقدر ، ويسترحن بقدر ،  
وياً كن وينمن ، وبترىضن بقدر

لذا لم تفكر تفكيراً جدياً فيما يعود عليها من فائدة علمية عن  
طريق هذا الشيخ ، بل ارتضت الاتصال به لتجيد لغة ترتفع بها  
عن مصاف العامة ، على أنها في لحظة استمتاعها بأحلام العذارى  
تنبت مواهبها الدفينة وتغلبت على فكرها القاصر فتمنت لو  
تبلغ مرتبة العظيمات الزعيمات ، على أن الواقع صدمها عندما  
أحست بقيود البيئته المحافظة الرجعية التي تعيش تحت سلطتها فلم  
تلبث حتى ارتضت بحياتها العادية التي تحياها . حياة القناعة التي  
لا تبعث جديداً ولا تلهم عجيباً ، حياة بنات التقاليد المرعية  
حيث لا تستطيع الفتاة منهن الخروج من سجن الخمول إلى دنيا  
اليقظة ومن الاعتماد على الغير إلى الاعتماد على النفس ، وأنى لها  
أن تجد التفكير لتخلق من نفسها إنسانة عظيمة مثالية وأما ومن  
حولها لا يتحدثون ولا يفكرون ولا يطعمون في غير وجبة طعام

لهذبة وثوب جميل وحياة هادئة تكفل لهم ما يشتهون من  
ضروريات الحياة وما يتيسر من كلياتها . إذن حسبها أن تتعلم  
اللغة لتتأثر على لداتها وتشعر من حولها ومن يستمع اليها أنها  
فتاة [ مودرن ] . . .

فلما حان ميعاد زيارة الشيخ ذهبت اليه وبين جانحتها إحساس  
قوى يدنيها من الآمال الحسان .

وهناك في الفندق وجدته في انتظارها وقد استقبلها بحنان  
الوالد وسماحة الفيلسوف ووقار الأستاذ .

ولما استقر بها المقام بدأ يتدرج بها من حديث إلى حديث  
فيخرج بها إلى العالم الخارجى ثم لا يلبث أن يعود بها إلى حياتها  
الخاصة مبسطة لغته قدر طاقته وهى تحاول جهد طاقتها أن تفهم  
لغته لتدرك ما يعنيه ، بحجة بقدر المستطاع مستعينة بالاشارة  
لإيضاح معقدها إذا خانها التعبير ، فاذا صعب عليها الكلام أحيانا  
أطرقت فى خجل مغممة : لا أفهم . فيبسط لها الحديث مستعينة  
بما يعرفه من الكلمات العربية .

ولم تكن الفتاة من النضج الفكرى تمكن حتى تفهم أنه  
يحاول أن يجعل منها أفقاً فسيحاً لفلسفته وأنه يحاول أن يجرب  
تأثيره الروحى ، ولو أدركت حقيقة توجيهه بالضبط لاستطاعت

أن تفهم الشيء الكثير عن فلسفته، ولقد تعتمد أن يتحدث إليها كأنها طفلة أمراً إياها أن تترك نفسها على سجيته بلا تكلف ولا تفكير ولا حذر، وأدركت الفتاة لساعتها أن تفكيرها الضئيل أصغر من أن يتمشى مع تفكيره الشاسع، فأيقنت أنها عاجزة بل فاشلة. فدمعت عيناها متمتمة سأتعبك.

فترفق بها وعطف عليها وقال: ثقي بأني أعرفين أكثر مما أعرف لكن - يعوزك المنطق ونضج الإدراك وقوة التعبير، وراح يتحدث إليها بعريته المنكسرة ليبدد ما عساه أن يكون ألم بها من ضعف أو خور فقال: يهمني أن تعرفي بأنك إنسانة تحمل بين روحها شفيفاً وعقلاً نابهاً في أطوائك ولكنك تجهلين مكانهما منك ومهمتي أن أدلك على معرفة قدر نفسك لتسمو بروحك، وحقيقة عقلك لتعرفي ما وراء آفاق العقل، حتى إذا بلغت روحك من الشفافية الطبقة التي تكشف لك عما وراء المجهول، تركتك لاتلقى عنك مع الآخرين حقيقة الوجود وما يمكن إدراكه من أسرار الخلود.

ولاول مرة تصغى إلى حديث تستمع فيه إلى معاني جديدة لا يمكن تشبيهها بأعذب الاحاديث التي سمعتها أو تمنى أن تسمعها...، لكن يمكن تشبيهها بالحنان أو ترانيم علوية،

استطاع هذا الشيخ أن ينقلها من السماء في كلمات تشبه في سحرها لغة الأنبياء .

فارتاحت واطمأنت وأنست اليه وتمنت لو تظل هكذا بجانبه تتلقى عنه هذه التعاليم العلوية لتبلغ مرتبة لم تسبقها إليها عظيما بنات حواء .

وهكذا كان يوحى إليها بما يريد أن يقوله عن طريق شعوره قبل أن يتكلم ليحرب مدى تسيطر الروح على الروح فكانت تفهم وتذكر وتحاول قدر استطاعتها أن تعبر عما يحول بذهنها فيسره ذلك ويطمئنه الى نجاح تجربته الروحية ، ولم يكن يعنى باللغة أو النطق قدر عنايته بالتأثير الروحي ليحملها على تفهم السرائر واستجلاء الغوامض معتمداً في تعليمها على تعرفه من قبل فهو لا يفرض الشروح ولا يرسم الأسباب ولا يصور النتائج بل يتركها وشأنها تبحث وتستنتج وتقرر .

وقد سأله مرة - لم تعلمني هكذا ؟ فابتسم قائلاً : أريدني أن أرسم خطوطاً بالعصا على وجه الرمال ؟ لا فائدة منها يا صغيرتي أطلقى ذكرك كما ينطلق الطائر في الفضاء الواسع محلقاً هنا وهناك متنقلاً بين الأفنان ، ليعرف كيف يهدأ إذا طاب له الهدوء ومتى يرتفع ومتى يهبط وكيف يجتاز الصعاب ويقطع البحار دون



الاعتماد على غيره ، ليحرف ما وراء القيد والانطلاق والهبوط والصعود لكي يعنى نفسه وغيره من تبعه المسئوليات فاذا فرض وتألم عرف السبب في تلاشاه وإذا فرح أدرك بواعث الفرح فيعمل على استبقائه - إن أمكن - مدى الحياة ، أما أن تربط الطائر بحبل لكيلا يطير ، أو تحبس في قفص لتنعى بلذته رؤيته كما يفعل الطفل الغريب فإن يفيدك قيده ولسوف يهرب أو يموت بعد أمد طويل أو قصير ، وتكونين بذلك قد خسرت شطراً من عمرك إن لم يكن عمرك كله في حلم طائر أو وهم مربر . .

حررى فكرك من كل قيد ولا تدنى بأى رأى ، مجاملة أو ترضية لأى كائن ، دعى فكرك يعمل من وحي الله وشعورك .



وعلى ضوء هذه الفلسفة كان وجهها وكان طبعياً أن تستفيد وأن تشعر بأن التعليم الصحيح ما كان مورد اليقين والفكر الحر والاعتماد على الاحساس الذاتى الصافى ، لذا تغير اتجاه تفكيرها بسرعة وتغيرت نظرتها إلى الحياة فلم تعد تنظر إليها مجرد أيام تمر على أى صورة ، بل هى حلقة تصل بين الناموس الذى خلق من أجله الانسان والناموس الذى يموت من أجله الانسان . وصحبها فى الدرس الثانى إلى حديقة الزهور قائلاً لها : أحب أن تتعلمي

ما ينفصل من علوم من الطبيعة وهى أم الحقيقة ، ومهمتى فقط  
معار ، نتك على تفهم الغامض - إذا عجزت - ولا أحسبك فى حاجة  
الى لانك ذكية ، وضحك مردفا ، لنجرب .

فقلت له : انك تبالغ فى تصور ذكائى . ولست أنت الذى  
يخاملنى . اولم نتفق على أننى طفلة لا أعرف أى شىء ، تصورنى  
كذلك دائماً لتفيدنى . قال : حسناً ولكن لا تنس أن الطفل يفهم  
أكثر مما يتكلم ، أما وإنك أصبحت تجيد الكلام فقد تعديت  
إذن عمر الفلسفة الصامتة والآن ، دعى التفاؤل يهيمن على شعورك  
أبدأ ، إنسى ما يسمونه التشاؤم إنه لون من ألوان النفس المميته ،  
أقبل على الطبيعة بقلب لا يشوبه الشك ولا يجتاز جنباته خوف  
أو بلادة ودعى شعورك دائماً يسبق تفكيرك لتذوقى جمال الحياة  
ولا تدعى المادة تقيم قناطر من الخواطر السوداء أو البيضاء بين  
حسك وفكرك ، وحذار أن تعتقدى كما يعتقد الدهماء أن الحياة  
وهم بل آمنى بأن الحياة هى الانسان ، أى اشعرى دائماً بأنك أنت  
الحياة فى صورة فتاة فلتكن حياتك أو أنت فى تعبير آخر الخير  
المنسجم مع الطبيعة لنراها نحن صورة مجسمة للقدرة الالهية الخالدة  
متعى روحك وكل خلجة فيك استمتاعا فيه رغبة تشبه الشره  
بجمال هذه الطبيعة ومسراتها ، لتنعى بمعرفة أسرارها ، وتذوقى

حلاوة أطايبها وتستمتعي بهجة جمالها وإدراك كنه خفاياها وثق  
بأنك بقدر ما تنهلين منها يكون مبلغ قوتك وعظمتك ، إذ تضفي  
عليك من جمالها وجلالها ما يجعلك شبيهة بها فيما تعزبه وتمتازين  
عليها بما حبا الله الانسان من مفاتن أجل وأعظم ، فاذا خيل اليك  
أن الانضمام إلى أبناء الحياة المادية أحب وأفضل فتكرنين قد بدأت  
من حيث لا تدريين في الاضمحلال ويبدأ نجمك وإنسانيتك العليا  
في الأفول وتتلاشى قوتك الروحية مكتسحة حقيقةك متوراة  
وراء ضباب الأوهام فاذا بك كذرة ضائعة في الدنيا المظلمة  
وتصبح حياتك جافة يابسة لا تغرى العين على التطلع اليها ولا  
القلب الى الدنو منها

ثم يتركها بعد ذلك تلعب وحدها مفكرة آناً ومداعبة مياه  
البحيرة بأقدامها أحياناً ، تمر بالزهور في تأمل لتقارن بين ألوان  
الطبيعة المتناسقة والمختلفة . . وهو جالس بحيث يراها أينما اتجهت  
وسارت يتأملها في إعجاب متمشياً معها بفكره ومشاعره ، فاذا  
لجأت إليه لتبدي له رأيها في مشهد ما . . . يظل يحاورها ببساطة  
فكرها حتى ينتهي بها إلى ما يريد . . .



ورافقها في الدرس الثالث إلى صحراء الأهرام ولما شعر أن

روحه الشفيفة تجاوبت مع هدوء الخلو المطلق شاء أن يختبر  
إيمانها فقال : لماذا أنت مسلمة ؟ وكان ينتظر أن تجيبه بأنها  
مؤمنة بالوراثه ، ولكنها أجابته بصوت الفخورة المعتزة بما  
تقول : لو كنت على غير دين محمد صلى الله عليه وسلم لاتخذت  
الاسلام ديني لانه دين الفضيلة فقاطعها متحدياً ، إن جميع الأديان  
تنص وتأمّر بالفضيلة ، قالت ، لكن دين محمد صلى الله عليه وسلم  
دستور هذه الأديان ، قال : وما دليلك ؟ قالت : إني أحيلك على  
القرآن . اقرأه . اقرأه محرر الفكر والحس من قيد دينك . . . ،  
اقرأه كأنك قد ولدت لساعتك خالي الذهن والحس من تعليم وتأثير  
دينك ! ثم سل نفسك الصافية الطاهرة المحررة واسمع منها  
الجواب ، وحاول أن يكسر من الجدل متحدياً إياها مرة ، ومصدقا  
نظرياتها مرة أخرى ليلس صدق عقيدتها ، وهي تزداد صرامة  
وعنفاً وإيماناً ، ملقية على مسامعه بعض ما تحفظه من آيات القرآن  
لتثبت له أن الدنيا من بدء نشأتها إلى منتهى الدهور في دفتي هذا  
الكتاب المنزل ، ورغم تأثره بما قالت فقد ابتسم وهو يربت  
على خدها قائلاً : لك دينك ولي دين ، ثم قبض على يدها في حنان  
واضح مردفاً : أنا نخور بك يا صغيرتي صدقيني . . . لأن إيمانك  
أقوى من قلبك ، وقلبك أفسح من عقلك وعقلك أكبر من سنك ،



وقليل من الوقت كاف لأن يجعلك زعيمة هذا الجيل . ثم وضع يده على كتفها وبصوت الواثق مما يقول . قال : سيحدث بفضلك في تاريخ هذه الانسانية حدث وسيكون لك في هذا الجيل معجزات لا يصدقها غير الملمهمين المؤمنين ، وأرجو أن أعيش حتى أرى بعيني وأسمع بأذني صدى معجزاتك . . . ثم تنهد مردفاً . . آه يا صغيرتي . . . لو استطعت أن أجمع بين فلسفتي وشعورك . . إذن لمت المعجزة .

وكانت حتى هذه اللحظة قد فهمت من أحاديثه أشياء ولم تفهم أشياء ومما لم تفهمه الفارق بين الفلسفة والشعور ولذا سألته ، فأجابها : الفلسفة وليدة العقل ، والشعور وليد القلب . وهنا غضبت واحتدت قائلة ، كأنك تهمني بالغباء ، فضحك قائلاً ، أبدأ كلاهما يتصل بالآخر فلو لا عمق شعورك ما استطعت أن تفهمي الحياة على ضوء هذه الفلسفة التي تجهلينها من نفسك . . إن قلبك مرهف عميق الاحساس وفلسفتك تلطف ثورته وتحول بين اندفاعه فلا يجمع ولعلك فهمت من ذلك أنك فيلسوفة بالفطرة . أو هناك من خلقهم الله فلاسفة تسكريماً منه لهؤلاء وإيثاراً لهم كما يختص البعض بالجمال أو القوة الخ هذه الهبات الإلهية . .



ودعته لزيارتها بمنزلها في « بنها » ، واقتربا بعد تحديد ميعاد هذه الزيارة على أن تكون الاسبوع المقبل وقد كان تفكير الشيخ فيها عندما يخلو بنفسه أكثر من تفكيرها فيه . . بل لعلها لم تفكر فيه إلا عندما كانت تستذكر درسه وهي لا تستذكره إلا نادراً وخجلاً منه لكي لا تبدو أمامه كسوله إذ كانت تعتمد على ما تفهمه من الحوار والمناقشة والاستنباط .

مر الاسبوع بطيئاً في حساباته عادياً في سرعته ولأول مرة تعود به أحلامه إلى عهد الصبا المتوقد حرارة وخيالا فسرح بذهنه إلى « بنها » قبل أن يصلها وهو في طريقه اليها وقد أضفى الحب على إحساسه لونا بهيجاً أكسب بنها في خياله جمالا وسحراً حتى أنه عندما وصل بنها لم يلاحظ أو لعله لاحظ وتغافل أنها لا تمتاز عن الريف المصرى المتواضع المهمل إلا بالمباني التي أنشئت حديثاً . لأن خيال الفتاة كان ملء ناظريه ووجدانه ، والبلاد كالافراد بعضها محظوظ وبعضها منكرب ومن حسن حظه أنه اجتاز شارع النيل فقط فاستروح منه نسيات الانتعاش والبشر ، ومن نعم الله الجليلة أنه جعل النيل لبلادنا واحة للراحة ومرفأً للسلام ومعيناً للهدوء والاطمئنان ، أما منزل جليلة فكان وسط مزرعة من أحسن

الا مكنة مناخا في القطر المصري حتى اختاره اطباء الخديو عباس  
الثانى له للاقامة فيه فأقيم فيه سراى الخديو وسراى ( الحرم ملك )  
وعلى أثر اغتياله اشترت المزرعة كلها بما فيها من أبنية شركة  
أجنبية بثمان بختس وكان سراى الخديو الخاص به قد تهدم من  
بعض الحوادث ولم يبق غير سراى ( الحرم ملك ) على أن الشركة  
استغلت المزرعة زراعيًا وماديًا . . . وخرجت منها بثروة طائلة  
شأن كل الشركات الأجنبية التي تبدأ عملها في مصر بعشرات  
الجنيهات أو المئات إن بالغت في رأس المال ثم لا تلبث حتى  
يصبح رأسمالها ملايين .

ومما يؤسف له أن السياسة الاقتصادية في مصر بيد الأجانب  
وهكذا يعيش المصريون في بلادهم غرباء يتناولون من فضلات  
انتاج الموائد الاقتصادية . التافه الذى لا يسد رمق الجوع  
المحرومين في هذه البلاد . . .



كانت أسرة جليلة تقطن فيما تبقى من بناء قصر ( الحرم ملك )  
وهو بناء أثرى فسيح رحب لطيف يشرف على النيل البديع تحوطه  
مزرعة يكفى الاستمتاع بمشاهدة غلاتها في مواسمها ولطف نسيمها  
لتبديد متاعب الحياة إذ مرآها يريح النفس ويبعث الانشراح

والارتياح . وطاب للسيد أن يقيم في منزلها بعض ساعات مع أنه كان في نيته أن لا يمكث إلا بعض ساعة لأنها هيأت له الجوال الذي يضي على البيت بهجة الانس والهدوء وإن كانت مشاعره كملت المنقوص فشعر أنه دخل الجنة بجوار حورية بعثت إلى قلبه دفء الخلود ، ولما أراد أن تصحبها لمشاهدة المدينة اعتذرت بدعوى أنها فتاة شرقية محصنة تحرص على احترام تقاليد أسرتها وهنا تحدّثها قائلاً : وما السر ؟ فنظرت إليه في بلب وسذاجة وغمغمت لأنك رجل لا تنتمى إلى الأسرة بقراية، ولولا اطمئنان خالي إلى وقارك ومكانتك لما صرح لي باستقبالك هنا كأستاذ لي .

قال : أو تؤمنين بذلك ؟

قالت : في الواقع كثير من التقاليد خاطئة ، ولا أكتفك أنني أشعر أحياناً بوجود تآلف روحي بيني وبين رجل غريب ومع ذلك فاني مضطرة إلى أن أتمشى مع تقاليدهم لأبرئ نفسي من وصمة تهمتهم .

فابتسم الشيخ وقال بلهجة الاستاذ : وأنا أريد يا صغيرة أن أطهر نفسك من أدران هذه الأخطاء فالناس جميعاً يتساوون في ميزان العدالة السماوية لا فرق بين العادل والظالم والرحيم والقاسي والعالم والجاهل، فمن يعرف العدل يظلم أحياناً ليطمئق من هو أعلى



منه منزلة ، ومن يعرف الرحمة يقسو أحيانا لكيلا يفقد احترام  
من هو دونه والمتعلم يتجاهل لكيلا يفقد أتباعه . . . وسكت  
ليأوه . . . وخيل إليها أنه تألم من رفضها الخروج معه فخافت  
أن يتخلي عنها وبذلك تفقد أملها الثقافي الذي تسعى لتحقيقه  
فقلت لتسترضيه . . . هيا نخرج في عربة

قال في حدة وكبرياء ، لا . . . لا يا صغيرتي لأحب أن أكون  
خادعا مخدوعا . . . ولا أحب أيضا أن تعودى نفسك هذا الخلق  
البغيض . . . ولنظل مسجونين بين أسوار التقاليد حتى نجد من  
نفوسنا القوة على التحرر والمغالبة . . . بدل الغش والمغالطة .  
وأرجو أن يعينك الله على تحرير نفسك من ظلمة الضلال أولا -  
لكي يتسنى لك تحرير غيرك . . . وودعها أسفاً وتركها وبوده أن  
يفتح صدرها ليخرج منه ضباب التقاليد الموروثة البالية التي تخيم على  
روحها فتحول بينه وبين تلمس السر السرمدى . . .

وظنت جليلة - أنه سافر غضبان فراحت تفكر فيه لأول مرة  
تفكيراً ينتمى إلى عواطفها بصلة - على أنه في الواقع لم يغضب  
منها لأنه يعرف أنها ما زالت طفلة مستعبدة لسلطان بيئته  
اعتنقت الأضاليل لأن التشريع الأرضي سماها قوانين مشروعة .

٣

مرت الشهور تباعاً وأوشك ميعاد عودته إلى بلاده أن يحل .  
ولقد ظل طوال هذه المدة لا يحدثها عن الفراق المرتقب وهي  
مدورها لم تكفر مطلقاً في رحيله ومتى يكون حتى جاءته كعادتها  
في ميعاد درسها المؤلف فرأته على غير ما تعودت أن تلقاه حيث  
لم يسرع لملاقاتها بل ظل في غرفته حتى دخلت عليه .

ولأول مرة منذ تعارفا تلاحظ ارتعاش يده وبرودتها عند  
مصافحته ، ولما جلست انتظرت أوامره ، ولكنه لم يتكلم ، وظل  
يحدق في وجهها وقد اغرورقت عيناه بالدموع ثم خجل من نفسه  
فهد يده في بطة وفتح كتابها وقال بصوت خافت بطيء متقطع  
الأنفاس ، اقرئي . .

فترددت إثر شعور مبهم طغى عليها وغمغمت ، ما حدث ؟ .  
وكأنه انتبه فجأة ، فاعتدل وتكلف بسمة وقال : لا شيء . . اقرئي  
إقرئي . . . قالت لا . . . لا أريد أن أقرأ فقد تعودت أن  
تناقشني أولاً ، فضحك بغير صوت ثم قال كأنه يخاطب نفسه ، .  
أصبحت عادة . . . هه أحسنا . . . وأطرق ملياً ثم أردف ،  
ألا تشعرين بتغيير في الحياة اليوم ؟ : . فابتسمت وعاد إليها بشرها .

وقالت : أجل ألمح بشائر الفرح بادية على وجه الحياة به سميناً كل  
مشهد وكل مظهر وكل إنسان صورة للحياة - كما علمتني ، وأظنه  
ذلك لأن نسبات الربيع تقبل ثغور الزهور وقمم الأشجار . .

فتنهذ في مرارة وقال : تشعرين بربيع الحياة لأنه لم يزل  
يعيش في قلبك . . . وكل خليجة فيك قصيدة شعرية رائعة يتغنى  
بها حسك ، وصمت لحظة ثم أعقب بينا هنا من يشعر بالخريف  
حواليه . . . لأن الخريف طواه في برديه . وتنفس الصعداء ثم  
أعقب . . . ومع ذلك ، مازال قلبه ينتعش لقبول الاحترام  
وليس ترد مادضى من صبا الايام في خياله عسى الخيال يضى عليه  
من جمال روحه ما يغرى ابنة الالهام . .

قالت : وما دام يشعر بذلك كيف يرى الحياة خريفاً . . .  
لقد قلت لي مرة ، إن قلوبنا هي التي تصور الحياة لنا هل  
تغير رأيك ؟ . .

قال : لم يتغير رأيي ، إنما فلسفتي تركتني لتعيش معك فانت  
اليوم التي تتكلمين !

فخرجت وخيل إليها أنه يسخر منها ، ولكي تغير مجرى الحديث  
وضعت أمامه كراس الواجب لكي يصححه ولكنه أبعد عنه  
في رفق وهو ينظر إليها نظرة عميقة تفيض حناناً وحزناً ، وقد

ترقرقت الدموع بين محاجر دحائرة فأكسبه ذلك هيبة وجلالة ورهبة  
فأجفلات وحولت وجوها عن بصره لتحفى اضطرابها إذ تذكرت  
قوله لها مرة إن الشيخ إذا دمعت عيناه يكون قلبه فى بكاء مستعر  
وتهتز لبكائه أركان الوجود اللامرئية . . . وقلب الفيلسوف  
كيف يبكى ؟ ومم ؟ . . . وعلام ؟ . هذا القلب الذى اتسع لأحلام  
وآمال الدنيا والآخرة يبكى ؟ . ما السر ؟ لشد ما تترق لمعرفة  
إزاء هذه الخواطر اهتز كيانه وانتفض شعورها والتهبت  
عواطفها كأن مسأ كهربائياً حولها من آدميتها المحدودة إلى روح  
هفافة مجنحة . . . راحت تحلق وتحلق . . . عساها . . . تدرك  
معنى السر الهائل الذى أبكى فيلسوفها الشيخ ! ! . وصعب عليها  
رغم لطف حسنها أن تفهم بالضبط معنى الاحساس القوى الذى  
شعرت به ولم تر مناصاً من الصمت فأطرقت واجمة . .  
وأخيراً تكلم السيد قائلاً : اليوم أودع حياة روحى الهائلة  
المطمئنة لاستقبال صراع عقلى المتعب الجبار . . .  
فنظرت إليه جليلة بعينين دامعتين إذ أن لهجته الحزينة خلقت  
الأسى فى صدرها وقد كانت حتى اللحظة لا تعرف من الأسى غير  
مظهره الطائر . . . وقالت : هل جد جديد ؟ ؟ . .  
قال بصوت تغلبه الضنى والالتياح ، بعد أيام أودع هذا البلـ



الحبيب لاستقبال وطني الغريب ؟ . .

فقاطعته في سدا جة ؟ . إنك تغالط نفسك يا أستاذي ، أيمكن

أن يكون وطنك قريباً ووطن غيرك حبيباً وقريباً ؟ ؟ .

فتنهد ونظر إليها في عطف وحنان قائلاً : أجل يا ابنتي . .

البلد الذي أشعر فيه بوجودي ومسرة قلبي هو وطني الحبيب

آه يا ابنتي . . . هناك أسرار إلهية لا يمكننا أن ندركها . . . ففي

أمس حلت بي هنا في مصر ثم نزحت بي إلى فرنسا أو لعلها

كانت تحب مصر وتحلم بها وتحن إليها وهي حامل أو وهي

ترضعني لبانها . . . أو لعل روعي . . . كانت من القوة بمكان

حتى استطاعت أن تسبق كياني وتكتشف جمال هذا الوادي منذ

كنت صبياً . . أما اليوم فاني أنكر أن يكون لعاطفتي هذه القوة

الخارقة في مدى هذه الأيام القلائل إلا إذا كان الله اصطفى عاطفتي

لتكون للعواطف نبياً . . .

هنا أوشكت الفتاه أن تخر ساجدة عند هذه القوة الهائلة قوة

الإيمان الصرف . . . وهمت لسؤاله . . . انك مسيحي . . .

وكيف يكون لك هذا الإيمان . . . ولكن نظرتة القوية أخرستها

فأجفلت وسكتت برهة ثم قالت . . . أتريد أن تقول بأنك

اعتزمت السفر ؟ ؟ .

فتكاف بسمه وقال : أجل . .

قالت : لشد ما يؤسفنى هذا ؟ . . ليت إقامتك تطول بيننا  
ولماذا التسرع فى الرحيل . . . إنك حر غير مقيد أليس كذلك  
ثم غلبها الأسى الكمين وقالت : أرجو لك طيب المقام فى أى بلد  
تحل فيه ، على أننى جد متألمة لحرمانى من لذة استمتاعى بعلمك  
وفلسفتك وحنوك الوفير . .

فأطرق مفكراً بعض لحظات كأنه يحاول أن يطرد شعوراً  
يضايقه ثم التفت إليها وقد استعاد رباطة جأشه وقوة طبعه وقال  
من الصعب يا بنتى أن أصل بين مداركى ومداركك لتنهى  
حقيقتى . . . أعتقد أن قليلاً من الحكمة كاف لتنبيه وجدانك كى  
تعرفى الواقع ، وأعرف أيضاً أنك شابة وطبيعيتك لا تألف إلا  
الشباب . لكن إذا حكمت عقلك ، وسبرت غور طبيعة الإنسان  
وغرائزه . عرفت أن العاطفة لاصلة لها مطاقاً بالشباب أو  
الكهولة ، لأنها لا تحمل للزمن حساباً ولا تقيم للعمر وزناً ، هل  
تصدقين أننى أشعر بالحياة تدب فى شرايينى حارة فتية كما لو كنت  
فى سن العشرين ؟ . . هل تصدقين أننى أحس بعاطفة قوية جامحة  
عما أحسست بها مطلقاً بقرب بنات الرين أو السين ؟ . .

يريد أن يتم حديثه ولا يريد أن يسمعها إياه . . أو لعله كان  
لابد أن يقول شيئاً ويخشى ألا تستجيب لندائه . .  
أما هي فقد أطرقت صامته وقد أدركت ما يحول بتلايف  
رأسه ونياط قلبه بطبيعة الأنثى المرهفة . . وانتعشت انتعاشاً  
يشبه الارتجاف من شدة الخجل وقوة الخوف . . وظلت مطرقة  
لتخفي اضطرابها .

ولقد أدرك ذلك فاستطرد يقول : لولم يكن في عمري بقية  
تحمل باحساسها أنقى ما عرف الوجود من عواطف لما كشفت  
لك يا بنيتي عن قلبي لتعرفي أن لك في الحياة لزوماً وأنتك صورة  
مجسمة للعاطفة الإلهية . لا تنظري إلى هكذا مشدودة أولم تعلمي  
أن لله عاطفة . ؟ إذن إيمانك لم يزل طفلاً . . .

إذن فاعلمي أن الله الذي اصطفى رسول المسلمين له حبيباً . .  
لم يصطفيه لمجرد إرادة إلهية في الاختيار . . إنما لمعنى أرق وأسمى لم  
يبلغ حس أحد من المسلمين غير الذين منحهم الله قوة الحس  
المطلق فاستطاعوا أن يتصلوا بأرواحهم وقلوبهم إلى العواطف  
القدسية . . . إذا علمت ذلك . . واستطعت أن تعلمي عن نفسك  
ما أعلمه أنا عنك . . أدركت أنك جزء من العاطفة الكبرى . .  
عاطفة الله الجليل التي لا يمنحها إلا للأنبياء والمرسلين والمؤمنين

من عباده المخلصين . . . ولم يمنحك الله هذا القبس لأنك حواء  
فساء هذا الجيل . . . إنما اختارك لأمر لا يمكن أن ندرك كنهه . .  
لكي تصل بين إنسان مثلى - مثلاً - وبين الله . .  
وهنا التفتت إليه في حرارة وحماة وقالت . . . ولماذا  
لا تتصل بالله دون وسيط . . .

قال . . . يا ساذجة . . . ذلك في مقدور كل كائن لو شاء الله  
لكن الله سبحانه وتعالى . . . يطيب له - لأمر لا ندريه أيضاً - أن  
يكون هناك وسيط بين العبد وبينه . . . وهذه الوساطة هي هبة  
إلهية يهبها الله لمن يشاء من عباده أيضاً تكريماً وإيثاراً له . .  
أو لم يكن في مقدور الله أن يحمل عبده على اعتناق دينه دون  
أن يرسل الرسل . . . فلماذا أرسل الرسل إليهم ؟ . . . في ذلك معنى  
التكريم والتفضيل والحب للرسل ومعنى التبسيط والتيسير للعبيد  
فأنت - كما أعتقد ، وكما يجب أن تعرفي ، واسطتي إلى الله . . .  
ومعنى ذلك أن الله يحبك ولهذا اجتباك واصطفاك لهذا السبيل  
ومادمت جزءاً من الحب الإلهي فأنت جديرة بكل حب . . . ومع  
ذلك فليس في مقدورك أن تفهمي ذلك الآن ، لأنك رمز للحقيقة  
السرمديّة ، التي تلهمنا كل شيء وهي لا تدري أنها تمنحنا أي شيء  
وذلك لأن السخاء والكرم من صفاتها وهي بصفاتها هبة



من هبات الله : . . .

ثم سكنت ليداعب الورق بقلبه والفتاة تائهة كالغريق في بحر فلسفته . . . حتى عاد يقول ، في مقدورى يا بنيتى أن أملأ حياتك بشراً وطمانينة وأن أسكب في قلبك عصارة أسمى العواطف الانسانية ، وأن أمنحك هناء السعداء الوادعين ورفاهية المحظوظين المطمئنين ، وطفى عليه شعوره فسكنت لحظة مطارقاً ليخفى انفعال عواطفه . . . وهى على حالها كأنها تستمع إلى صوت من أصوات القديسين يتراعى إليها من وراء السماء ثم التفتت إليه قائلة . . . ما سمعتك تتحدث بالعربية بهذه القوة . . . كأنك تجيدها من زمن بعيد . . . إنك تتكلم أحسن من أبنائها . . . ولو أنك دعرت الناس إلى اعتناق دين ما لآمنوا به .

فابتسم وقال حسنا : إذن أتؤمنين بدينى ؟

قالت فى حماسة : أنا أؤمن بعيسى رسول الله فدينك الأصيل

لاجديد فيه على . . . إنما أنت يعوزك أن تؤمن بدينى

فعاد يضحك وهو يقول . . . يعوزك الشيء الكثير لتغرينى

على اعتناق دينك

فاغتاظت وأحست بنقصها وقالت : ماذا تعنى ؟ .

قال : أمامك شوط كبير من التجارب والمعرفة . . . على أن

الله - كما قلت لك منحك قوة الوساطة . . لكن بغير كلام .  
لانه يعلم أنك مازلت في هذا الصدد طفلة تلعب في ساحة الأحلام  
فدعيني أختصر هذا الشرط البعيد . . لأنني قطعتي وحدي لأوفر  
عليك جهد السنين الطوال واستمعي إلى حنى النهاية . . فإن اليوم  
آخر أيام النضال ، . أنا أواجه الآن أدق شأكل الحياة - الدين ،  
والسن - ديني غير دينك ، وعمري أضعاف أضعاف عمرك ، فهل  
يمكنك أن تفهمي أن الله الذي هداك قادر على أن يهديني . .  
ولكنه أراد أن يكون ديني غير دينك . . وليس لي ولا لك  
اختيار في هذا . . فهل يمكن أن تفهمي أنه من الجرم أن نكون  
تابعين لا متبوعين ، ولكي نفهم ذلك يجب أن يعرف الإنسان  
نفسه فنحن نؤمن بوجودنا بلا ريب ولكي نعرف حقيقةتنا يجب  
أن نحاول تعرف غورنا . . إن في نفسك كل شيء فاذا استطعت  
أن ترفعي الغلاف الكثيف الذي على هذه النفس سعدت وارتحت  
إذ تشفى روحك وتتصل بنصفك المتم أو على الأصح ملهمك  
الخفي ومنفذ عواطفك . . وهذا هو الحب . . الحب الصحيح  
السلیم ، ومن ثم كانت السعادة وكان الخير وكلها تسامى حبك انفسح  
أمامك مدى الحياة ، وعلى قدر قوة عواطفك وطهرها يكرن  
مبلغ اتصالك بالله ومقدار تمتعك بمعرفة اللامدرك ، ذلك لأن

الحب الروحي هو الايمان الصريف أو على الأصح هو الإيمان  
الإيمان ، وهو وحده سبيلك لتيسير العسير والرضا بالحياة على  
أى لون كانت لأن إيمانك يضئ عليها لونا بهيجاً يسد الظلام  
ويكسح الألم ويتغلب على الصعاب . . وأخيراً يجعل منك إلهاً  
صغيراً ينفذ تعاليم الإله الكبير فى صدق وأمانة دون أن يعتمد  
على قوانين خاطئة أو ضالة . .

وتهد فى سمرارة وغمغم : هل تكفى التعاليم التى غرستها فى نفسك  
لتفهمى هذه الحقائق ؟ . .

إن مشكلتنا . . الدين . . والله رب الأديان جميعاً فأنا أعبد  
الله وأؤمن به وكل كتاب أنزله ورسول بعثه .

وهنا صرخت فى فرح . . . إذن أنت مسلم . . وقبضت على  
يده فى عاطفة حارة . .

فتكلف بسمة قائلاً : يا طفلى الساذجة . . . مازلت ابنة  
شعبك . . . بل ابنة الشعوب الساذجة كلها . .

قالت وهى تنظر إليه فى عجب . . أولم تعترف برسولى . .  
إذن لم يبق عليك غير الشهادة . . وقبضت على يده مرددة . .  
إنطق الشهادة . . قل أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده  
ورسوله .

فابتسم قائلاً : وهل يكفي هذا لاثبات إسلامي وإيماني . .

قالت : طبعاً ، طبعاً . . .

قال أظنني جميع أولئك الذين اعتنقوا الإسلام جهراً  
مسلمين مؤمنين ؟

قالت : بالتأكيد . . إذ ما الذي يحملهم على الاشهاد ومعاودة

أبناء دينهم المسيحي . .

قال : يجب ألا تصدق ذلك . . هناك مشاكل في الحياة

تدفع الانسان إلى الكذب حتى يضطر إلى تغيير دينه أحياناً . .

والله وحده العليم بالسرائر . . قد يكون هناك من اعتنقوا

الإسلام عن إيمان يقين . . ولكن فيهم أيضاً المرائي الكذوب

والزمن كفيل بأن يثبت لك صحة ما أقول عند ما يتقدم عمرك

على تفهم الحياة . . .

فقالت : على كل حال . . لا يهمني الآن إلا أنت فهل أنت

صديق في إيمانك ؟

قال : حسبك أن تعرفي أنه ليس في الحياة ما يحملني على

الكذب ، وأنتي بلغت أوج الشهرة والمجد والعظمة في بلادى وهى

بلاد ديني ، إذن إذا آمنت ، فسيكون إيماني لله ، ويبنى

بوين الله . .



قالت في غضب . . . لا ، يجب أن تعلمه وتنشره في الصحف  
فضحك طويلا حتى كاد يستلقي على ظهره ثم قال . . . وإذا  
لم أعلنه ؟ . . .

قالت : ستكون في نظر الناس مسيحيا .

قال وماذا يهمنى من الناس ؟ . . .

قالت في ضجر وثورة . . . يجب أن يعرف الناس الحقيقة . . .

قال : اطمئنى . . . أنا أعرف ما يتطلبه الناس منى . . . وما

تطلبه الحياة ، وواجب نحو الله . . .

لن أعلن إيماني وأريد أن يكون سرا بيننا . . . لتطمئنى إلى

لأنك ما زلت في عمر قياس الفخمية والحب بالمظهر والقلب . . .

ونظر إليها بعينين دامعتين وهو يتكلم بشفتين مرتعشتين . . . وقد

بانت عواطفه الجامحة في عينيه فازداد التماعهما حتى أخذت بهما

وأوشكت أن تغيب في عمقهما . . .

وظل يتكلم أنا أفهم الله كما تفهمينه ، وفنائى دينى هى فضائل

دينك بل كلاهما — لمن عرفهما — يتفق فى الجوهر والغرض

الذين جاء من أجلهما ، فهل يقتنع عقلك بذلك ، لا أظن . . . لأن

مدرسة روحك غير مدرسة روحى وتربية نفسك غير تربية

نفسى واتجاه فكرك غير اتجاه فكرى . حقا : لقد استطعت أن

أعبر بك قنطرة من التفكير أطول من عمرك بكثير وسيجيء اليوم  
الذى تكتمل فيه معارفك وعراطفك فتكونين مثلى تماما أو  
يزيد . . . من يدري ؟ . . . إنما اليوم . . . هل يمكن أن أخلص  
من سجل عمرى ما مضى من السنين الطوال لأعود إلى سنك وهنا  
أبسم فى مرارة وأعقب . . . ومع ذلك فى مقدرك أن تشعري  
بحبوية قلبى الفتى وشباب عواطفى الحى - إن شئت - فهل  
تقبلين أن أضمر ما مضى من عمرى الطويل إلى ما بقى من عمرك الطويل  
إن شاء الله ، لتكتمل معرفتك ويتم نضجك وتضمنى سعادتك  
أتقبائين أن أجعل قلبى الكبير مسكنا لقلبك الصغير كى أحياه من  
أعاصير الدنيا ؟ .

أتقبائين أن أجعل منك آية لإيمانى أقرؤها على مسامع  
أصحاب القلوب الصماء ليسمعوا ألىانى . . .  
أيمكنك أن تحققي نبوءة إيمانى من أن المرأة الجديرة بالحب  
لا تتمر بالرجل غير مرة واحدة فى حياته . . . والرجل المحظوظ الذى  
يعثر عليها ويعيش لها ومعها أما ليلة القدر تطلع على السعيد  
المحظوظ فى غير ميعاد .

وسكت ليسمع كلامها . . .  
كان من الطبيعى أن تفهم جليلة مقصده ومرماه فارتبكت

واضطربت وغمخت : أنسيت يا أستاذي أني فتاة مسلمة شرقية  
وأناك رجل مسيحي غربي ؟ .

فقال بصوت هادئ رزين ، أعرف ذلك يا صغيرتي . .  
وهذه ليست مشكلة كما أسلفت لأن الله الجليل في كل بلد ومكان  
والانسان إذا عثر على من يحب ملاً دنياه وأغناه . فإذا سلمت  
بذلك وأرجو أن تسلمي به لفهمي نبل مقصدي ونبل غايتي  
فابتسمت في سداجة قائلة : وما هذه الغاية ؟ .

قال : في الواقع لم يكن لي قبل اليوم غاية ؟ أما اليوم فغايتي  
أن أعيش ما تبقى من عمري محباً محبوباً أبعث في شرايين الانسانية  
الكبرى حرارة الحياة العليا ! .

وغير لهجته من الرجاء إلى القوة مردفاً ، سأمنحك كل ما  
ترتجينه من سعادة وحب وهناء ، قرلى ماذا يجزل في صدرك ،  
لاني أفهمه ولكن تكلمي لأسمعك ؟ .

فلم تتكلم وطفرت الدموع من مآقيها فلم يستطع ضبط عراطفه  
واقرب منها ليمسح دمايحها بأطراف بنانه ثم قبل مواضع الدمع  
من أصابعه كأنه يتبرك بماء ظهور قائله والغصة تحجب ألفاظه  
لأن أعيش طويلاً يا جليلة ، سأحتفظ بك زهرة شذية عاطرة  
وسأتركك زهرة عبقة ناضرة ، سأعطيك من نفسي أضعاف ما

أخذ من نفسك فتشعرين أنك أعظم امرأة وسأسكب في قلبك خلاصة قلبي فتزدادين قوة وحيوية وتربحين الدنيا كلها بما فيها من شباب وقوة ومعاني عظيمة وآثار خالدة — ثم يجتاز الشباب ؟ القوة والحيوية أليس كذلك ؟ . . سأكون بصدق عواطفى أقوى من الشباب ، ولا تصدقنى أن الحب يعيش مع الربيع أو أن الربيع يزدهر فى سن الشباب ، الشباب يا جليلة هو الحركة الدائمة ، ولئن كان فيه حلاوة فإن فيه من المساوىء ما يبدد هذه الحلاوة ، فيه الملل والاضطراب والقلق والذسيان ، فيه العبث والجنون ، وتنهى طويلاً ثم استطرد ، الشباب يا صغيرتى لا يقنع بشيء ولا يرضيه شيء ولا يشبع من شيء ، لا يستقر ولا يهدأ ، لذا لا يعرف الوفاء ولا يحفظ عهداً ، لأنه لا يعرف الطمأنينة والشبات . .

وسكت ليرى تأثيرها منه فقالت . . إلى هذا الحد تكره الشباب ؟ . . وهل كنت تعتقد ذلك وأنت شاب ؟ .  
قال : طبعاً لا . . لأن الشباب يلده الواقع ولا يعلق إلا بالخيال . . كما يكره الجد ولا يميل لغير الهزل . . .  
فقاطعته . . أكنت تنظر إلى بهذه النظرة لو رأيتنى فى شبابك ؟ . .



قال . . لا بد لأن الروح كالنور لا يتغير جوهرا مهما تقدمت  
الدهور . . إنها قبس إلهي يحتفظ بمعناها . . والذي تتعلق به في  
طفولة مادتها البشرية هو ما يتعلق ؟ في كهولة هذه المادة . . أما العقل  
فهو جزء من مادية الجسم يتغير ويتطور حسب تغير وتطور البدن . .  
بدليل أن صحيح الجسم يكون عقله سليما والمريض لا يحسن أداء  
عمله العقلي . .

قالت : هذا صحيح . . فحدثني عن الروح حدثني لأستقي منك  
ما ينفعني في شبابي وكهولتي . .

قال : لا يهمني الآن إلا أن أكشف لك عن روحى إذ ليس  
في مقدورك أن الاكتشاف ما يمكن اكتشافه من عوالم الأرواح  
إلا بوسيط روحاني ، فليكن أنا هذا الوسيط . .  
فابتهجت وقالت . إذن دع روح أبى تحدثني أو تشعرني  
بوجودها . .

فضحك وقال . . لقد انتقلنا إلى علم استحضار الأرواح .  
هذا بحث آخر يا صغيرتي ، العلم ينتقل كل يوم فيه من أفق إلى أفق  
كما تنتقل الشمس من برج إلى برج . . وما زال الباحثون  
فيه يتخبطون في عوالم المجهولة . . ويوم يستقر الرأي فيه . .  
أجمع روحك بروح أبيك . . فدعيني أجرب أولا هذه النظرية

في جمع روعي بروحك . فان نجحت انتقلنا إلى أرواح من  
تحيين ١٩ .

فظهرت إليه في بلاهة قائلة . . . وكيف تجمع بين الروحين  
قال إن شئت . . اجتمعا عاجلا

قالت بصوت الدعابة وهي تبسم : وهل مازالت روحك  
معك . . . ألا يحتمل أن تكون هناك وراء باريس . . . إن من  
يتحدث عن الحب ويجيد يكون حديثه عنه ألف مرة ويزيد . . .

قال ، بالعكس . . الحب كالخمور لا يحسن الكلام عن الخمر  
وهو مخور . وهو لا يتحدث عنه إلا في حالين . . إما أن يكون  
محروما فيظل يتغنى به كما يتمناه أو أحب وأخفق فيتحدث عنه  
كما يشتهي أن يراه . . وهبني أحد الاثنين . . فأنت ابنة أحلامي  
على أي حال . . وحسبك أن تعلمي أن في روعي سر الإنسانية  
ومنه ط الحب . . . ولا أخفيك أن روعي كالطائر يؤثر  
حرارة العش على نداوة السماء ، وفي روعي من الإيمان ما  
يعينني على أن أسكب في روح من أحب الدعة واللفظ والجمال  
أم لبتك كلمة يا صغيرة ، لبتك بلغت الأربعين أو الخمسين وخطط  
رأسك الشيب وعافت نفسك ملهات الدنيا ، لبتك كلمة يا صغيرتي  
ليكون لك جمال الحكمة وفلسفة الخبرة وروعة النضوج وعظمة

الحب و جلال الوفاء ، لبتك كلمة لتعرفي حقيقة النشوة وسر  
الفتوة ، لبتك كلمة يا صغيرة . . لتدركي عمق الحب و جلاله في  
هدوئه لا ثورته . . آه لو كنت كلمة لعرفت اليوم روعة حكمتي  
ووفرت على عناء الشرح والإطالة . .

قالت : إنك تبالغ في تمجيد الكهولة فكم من النساء فسدن  
وأخطأن في سن الكهولة ، وأملك سمعت عن بعض السيدات  
اللاتي تزوجن من غير دينهن . . . وأنهن جاوزن الشباب وبدأن  
في السكولة . . . وعجيب أننا لم نسمع أن فتاة في سن العشرين  
مثلا تزوجت بأجنبي . . . لكن كلهن قطمن الأربعين والخمسين .  
فقاطعها . . . هنا ليست الكهولة هي التي تتكلم . . .

قالت : أتعني الحب

قال : ولا الحب . . . إنما الرغبة وأعني بها عواطف الانثى  
وتفكيرها تحولاً إلى رغبة جامحة لم تجد أمامها سبيلاً للتنفيس غير  
هذا السبيل فالمرأة التي تعاشر أجنبياً أو تتزوجه تكون رغبة  
في أشياء يجهلها المجتمع . . .

قالت : أكثرهن يتمتعن بالجمال والثروة والجاه

قال : وهذا سر سقرطن لأن الحرية المطلقة دون حضارة  
دينية أصيلة تهذب الرغبة وتحولها من الشره البغيض إلى

## الاعتدال المقبول

قالت : إنه جرم على أى حال فى حق الدين والوطن  
قال : أنا معك ولكن لا تنسى أن الذنب ذنب الدين والوطن  
فلو أن قانون هذا الدين ينص على معاقبة المرأة التى تتصرف مثل  
هذا التصرف عقابا جسما كأن تجلد علانية وتجرد من ثروتها  
فأتفق بأنه لا تجرؤ امرأة واحدة على اقتراف هذا الاثم وذلك بحسب  
طويل يحتاج لتشريع سياسى ودينى واجتماعى فى هذا الشأن  
قالت لو انك كنت تقرأ القرآن وهو قانون الاسلام لو وجدت  
آياته ناطقة بأن المسلمة لا تحل لأجنبى ولا الأجنبى يحل للمسلمة  
ولو ان اجنبية اسلمت دون زوجها لحُرمت عليه .

قال : وارجو ان يعينك الله فى مستقبل الأيام الى توجيه اولى الامر  
لتطبيق جميع احكام هذا الدين

فضحكت قائلة : انا ، انك تبالغ فى تعظيمى

قال : ولم لا؟ ان المرأة الصالحة المؤمنة تنفع وطنها اكثر من  
الرجل الصالح المؤمن لأنها تجمع فى توجيهها بين مؤثر العاطفة  
ومؤثر الدين وذلك ابلغ سبل التوجيه

وهنا احسست بأن الوقت مر وفات على ميعاد عودتها اكثر  
من ساعة فوقفت قائلة : اليوم قطعت دراسة عام كامل واظن



ذلك يعطيني من دراسة الأسبوع المقبل كله  
فقبض على يدها في رفق قائلا : في الأسبوع المقبل وسكت  
لحظة ثم اردف اكون هناك

فانتفضت وشعرت باحساس قوى جارف ابكاها  
أجل بكت وهي لا تدري أتبكي من الفراق المقدور أو من  
شيء لا تدريه ، وأخيراً قالت والدموع تغالبها : أهكذا سريعاً .  
وهل تراك تعود أم هذا آخر عهدى بك ؟ قال : لا أريد أن  
أذهب وأعود أى نفرق ثم نجتمع . . . بل أريد أن نجتمع  
اجتماعاً أبدياً . . .

قالت متمتمة كأنها تخاطب نفسها . اجتماعاً أبدياً . فوضع  
يده على كتفها في حنان وهو يقول : أجل أضم روحى إلى  
روحك وقلبك إلى قلبي . ولكي نحتفظ بهذا الامتزاج الكلى بعيداً  
عن الأراجيف والأقاويل يجب أن نتزوج . . ونظر إليها كأنه  
يستحلفها أن تترفق به وسكت

فدعرت وصرخت بغير صوت وقالت في عنف : أتريدنى  
أن أكون وصمة في جبين وطنى وعار يؤخذ به أهلى ؟ لخير لى  
أن أموت . . .

فلم يغضب لصراحتها لأنه يعلم أنها ليست من فضج العقل

واتساع أفق الروح ما يعينها على تقدير مطلبه والترحيب به  
ولكنها فتاة لم تزل بمداركها الروحية طفلة رغم ما لها إياه . ولم  
يزل دم العروبة الأصيل يجري في شرايينها حاراً وصعب عليها  
أن يمتن كراتها ويظننها من البله والجنون إلى حد يبيع لها الزوج  
من أجنبي ولو كان ملكاً متوجاً . ورغم ذلك - أطرقت إذ  
تجاذبتها عوامل الحيرة والإباء والخجل . على أنه فهم بروحانيته  
ما يطوف برأسها ويتمشى في إحساسها فقام من مكانه . وحمل  
إليها « القرآن » وقال : أليس هذا كتاب دينك - لقد أصبح  
كتاب ديني ... إلى أو من بالله ورسوله وأفهمهما أكثر منك ولولا  
إيماني بهما ما أحبتك وآثرتك على نساء العالمين ، ولا أقول إنني  
من أجلك اهتديت فأنت نفسك ما زلت في أول مراتب الهداية  
إنما الحب هو الذي هدى لانه وحى الإيمان ... كل ما لك على من  
فضل . أنك فتحت أمام بصيرتي آفاقاً كانت محجبة وأبواباً كانت  
مغلقة فأيمانك الفطري القوي دفعني لدراسة دينك وقراءة قرآنك  
فما قرأته ودرسته حتى كنت مؤمناً ، فأعينني لو شئت إلى أن نفتح  
سوياباب هذا الدين أمام الذين يريد الله أن يهديهم . . .  
كان هذا كافياً لرد طمانينة الفتاة وإقناعها بصحة إيمانها وتجسم  
إمامها المجد والعظمة والحب والجاه في هذا الشيخ واوشكت أن

تقول : لا مافع ثم بدا لها طيف خالها وأمرها تخافت واضطربت  
مترددة ثم سكنت لحظة لتصالحه ثم قالت وهي تودعه : اترك لي  
فرصة وسألقاك غداً ، وأرجو أن يجمع الله روحيناء على أنى امتك  
من قلبى وأهنى الاسلام بك . . .

فقال وهو يصالحها : أما ان تهينينى بآيائى فلا أقبل ذلك ، لأن  
لعمري هو خير تهينة منحى الله إياها ، وهو الذى يهدى ويضل ، لكن  
هتيني اذا سألت بك ..

قالت : اذن اتفقنا ..

قال : هل أتقدم غداً لأهلك ؟

قالت : دعنى أهى لك الفرصة . وسأصل بك بعد غد ان  
شاء الله تعالى ..



لم تكدر تصل الى المنزل حتى اختلت الى نفسها تستعيد ذكرى  
ما جرى بينها وبينه فبأى عقل تفكر؟ وبأى قلب تحس ؟ ، وهل  
يمكن لمثلها ان تفكر وتشعر وتحكم وتنفذ فتصيب ؟  
فكرت طويلاً فبدا لها الامر أخطر مما يمكن احتمال التفكير  
فيه اذ أنها ليست مشكلة بجانس الشباب والشيخوخة وحسب ، ولو  
أن الامر كذلك فقط لصعب عاها أيضاً . هي ابنة الثامنة عشرة ..

ان تفكر بعقل رجل في الستين من عمره وهل كان في مقدورها  
ان تقهر رغباتها وتغالب احلامها وتتغلب عن تقاليدھا من اجله؟  
ذلك يحتاج لتفكير عميق ايضا، ولكن تفكيرها في مشكلة الدين  
لم يدعها تفكر في هذا الشأن، لقد اشتعل تفكيرها الى حد كاد ان  
يودي بوعيا، وغلبتها طبيعة الانثى الشابة فلم تجد من احساسها ما  
يشجعها على تحقيق رغبته، ثم لم تلبث حتى تلاشى هذا الاحساس  
عند ما تخيلت انه لو تم لها ما يريد فستكون اعظم امرأة في الوجود  
ثم ما الضرر لقد اعتنق الاسلام واصبح في حكم الشريعة حليلا.  
واعترفت ان تصارحه بأنه إذا أعلن إسلامه ليعلم الجميع أنه مسلم مؤمن  
وانها تزوجت بمسلم مؤمن فلا مانع عندها وارتاحت لهذا الخاطر.  
وبدأت تفكر كيف تواجه أهلها لتهيء له فرصة محادثتهم، وهي  
على يقين من حب خالها وتفاهمه معها. إذن ان يرفض... ولم  
تسكد تلاحظ عليه هدير البال واتجاه عاطفته نحوها حتى حدثته  
بأمرها، وسرعان ما تغير حاله ولأول مرة في تاريخ حياتها يغضب  
ويثور ويتلاشى أينه ولطفه، ويصارحها أنه لا يوافق على ذلك  
مطلقا. سمعت الأم حدة النقاش ولم تسكد تعلم الأمر حتى ثارت  
هي الأخرى، ولأول مرة تشعر ابنتها بالعنف والقسوة وتهدها  
بتحريمها ومقاطعتها الأبد إن خرجت عن طاعتهم وتصور لها هول



الجريمة وما ينتظرها في المستقبل من عار يلاحقها حي الأبد . .  
وعبثاً تحاول الابنة اقناعهما . . . إذ تقول الأم سيكون أعمام  
أولادك وعماتهم وذووا قرني والدم من النصارى . . وتحتج الابنة  
وتتخذ من زواج الرسول عليه الصلاة والسلام بما رية القبطية . .  
فلا يقبلان هذه الشفاعة ويؤكدان لها أن موقف الرسول على الله  
عليه وآله وسلم غير موقفها ويشدد الموقف حتى تخضع الفتاة أخيراً  
وتعهدهما بعدم الاتصال به مطلقاً وكان لابد ان تطيع لأن تربيتهما  
المنزلية عودتها على الطاعة المطلقة وكتبت اليه رسالة معجلة :  
استاذى ،

يمنعنى خالى من الخروج لاتمام دراستى . . وقد عقد قرانى  
البارحة فجأة على ابن عمى اذ كانت نية اهلى مرحلة على ذلك من  
زمن دون على وهكذا نحن بنات الشرق لا حيلة لنا ولا ارادة  
ومن تخالف ارادتهم تسكن فى حكمهم وحكم المجتمع مجرمة ، ولا  
احب ان يضم اسمى الى قائمة المجرمات وان كنت اؤمن فى اعماقى  
بأن صحة الاجرام باطلة ، لكن ماذا تقول لبيئة تعتق تقاليد  
شعب توارثها كابرا عن كابر . معذرة يا استاذى ، سأحفظ لك ما  
حييت بحمىلك وسأعتز بها منحتنى اياه من ثقافة ومعرفة ، راجية  
لك كل خير وسعادة حيث كنت ولك تقدير تليدتك الوفيه ؟ جليلة

وعلى إثر إرسال خطابها اختلت إلى نفسها بعض ساعات وقد  
أحست بمرارة الندم ولأول مرة في حياتها تشعر أنها تصرف  
تصرفاً يخالف ضميرها . . . لكن ما الحيلة ؟ وهل كان في رسمها  
أن تفعل غير ذلك ؟ وازداد ألمها حينما شعرت أنه كن في مقدورها  
أن تكون أكثر لباقة ولطفاً وكياسة وكان في مقدورها أن تلتقاه  
وتفهمه حقيقة موقفها وموقف أهلها بالضبط وتودعه وانتظرت منه  
كتاباً باعتزمت أن تلتقاه بعد أن تعرف رأيها . ومضى أسبوع ولم يكتب ،  
وجمعت بها عواطفها الدفينة فتناست كل شيء . إلا أنه رجل جدير  
بالحب والزواج وهل يمكن أن تجد في دنياها من يماثله في عظمة  
روحه ونبل قلبه وقوة إيمانه . . . إن إيمانه أوسع وأعمق من هؤلاء  
الذين يحملون من الاسلام اسمه ، يشربون الخمر ويلعبون الميسر  
ويأتون الاثم جهرًا وسراً . أما هو فلا يعرف من أمور الدنيا  
غير التأمل والعبادة . . . عبادة الله العلي العظيم في كل مظهر تتجلى  
فيه عظمة الخالق . انه جدير بأن تقيم له صلاة الحب وصلاة الايمان  
بإيمانه ، أي خبل اصحابها عند ما احترمت مشيئة أهلها ولو انهم  
عرفوه وخبروه كما عرفته وخبرته لأحبوه وآثروه . اذن الذنب  
خذيها . . وما الفارق اذن بينها وبين ابنة الجهالة وقد اكتسبت منه  
معرفة وعلمًا يعينانها على تعرف حقائق الأمور . . وصح عزمها على

أن تعتذر له عن رسالتها وتصارحه بما حدث وتضع نفسها تحت تصرفه وحسبها أن تعيش . . . حيث يعيش وتنهل من نهل روحه الكوثرى الفياض من فاسفة الوجود وعواطف الروح ، الإيمان القلب لتكون من عظيمات النساء .

واستبد بها هذا الاحساس فذهبت إليه لتستغفره وتضع حياتها بين يديه وتقبله زوجاً وأباً وأستاذاً وأيقنت أنها أفضل بكثير - على أى حال - من لداتها اللاتي تزوجن شبوفاً قعد بهم الضعف عن المشى والحركة لثاء الجاه والمجد المادى ، أما شيخها فما زال يحمل من الصبا معناه ومن الشباب حرارته ومن الحب قوته ومن الايمان طهارته ، وفرق ذلك فهو فيلسوف وفنان ، فياله من مغنم جسم وكنز روحى هائل لا يفنى . . .



وصلت الفندق وهى موقنة أنه مازال ينتظرها ليودعها - على الأذل - شاعرة بفرحة تكاد ترقف لولب العالم إن كان فى يدها متغاضية عن الشعور الحزين المبهم الذى يساورها ، ظناً منها أنه شعور بالخوف أو النضال الداخلى الذى يحدث فى مثل هذه المواقف غالباً وهو العراك الذى يقوم بين أفق الانسان المحدود وأفق الآمال اللامحدود . لم تجده فى غرفته ولما سألت عنه ، قيل لها إنه سافر منذ يومين .



يا الصدمة المروعة الهائلة ، سافر دون أن يكتب إليها مودعا على الأقل . يالفداحة الخسارة التي تشعر بها المرأة إذا فقدت قلبا يرواها . المرأة وحدها التي تقدر ذلك وهو في حساباتها خطب لا يعدله أى خطب

وعادت إلى دارها حزينة تحمل مرارة الحيرة وآلام الذكرى وحسبت نفسها طوعا لتعيش مع تعاليمه وفلسفته إذ شعرت أنها لم تعد تستطيع التجرد من روحانياتها المتعطشة للرى من منهل روح كروحه ، وأين لها هذه الروح في بلد لا تعرف غير المادة التي نفذت إلى كل قلب واتخذها الناس في هذا العصر ديناً . . . وبدأت تعيش على تعاليمه التي كان يعلمها عليها وهي خلاصة الايمان الذي يقرب بين العبد وربّه ويجعل من أفقه المحدود انسانية شاملة بما تشمله من حب وعطف وآلاف وبر وحنان . فاذا جالست انسانا كهلا أو رجلا أو شابا راحت تقارن بين الروح الغائب الذي أفسح لها المجال في الدنيا ثم استجاب لمشيتها غير آسف على ما يبدو ، لأنها لم تقدر قيمة الهبة الخالدة التي شاء أن يهبها اياها ، فلا تخرج من المقارنة الا بألم مريع قاتل يحز في نفسها ، لما تراه في الدنيا من مفسد وآثام وخداع وغش ونفاق . . . فتزداد كرها للحياة وتشعر أن نور الحياة العلوية التي فتحت رتاجها أمام بصيرتها شيخم



الفيلسوف . . بدأت تتجهم لها رويداً رويداً فتدرك أنها فقدت كل شيء ولم يعد أمامها إلا أن تعيش كالآخرى . . عيشة الدواب ورغم ذلك تحاول جهد استطاعتها أن تهرب من أخيلة اليأس والقنوط لتقرأ آثار فيلسوفها كلما عوزها أو أحست برغبة لمناجاة إنسان أو جهنت إلى عالم الحب والاحلام .

\* \* \*

تمر السنون تباعاً وهي عاكفة على دراسة الفلسفة وتذوق أسرارها لتدنو من الحقيقة السرمدية . . حقيقة الايمان الصرف فلم يعد لها أمل . . . إلا أن تعمل الخير في سبيل الخير لتسمو بنفسها حيث كان يريد استاذها الفيلسوف، قاذفة بأن تمتع ناظرها بجمال الطبيعة كلما اشتهت تذوق الجمال . . وتتأمل مفاتيح الوجود لتبدد الأسى الذي ألبس نفسها غلالة كثيفة تحجب عن قلبها مغريات الحب . . . معتقدة أن عبادتها وتسبيحها وتبتليها خير حياة وخير وسيلة للمتعة النقية الطهور، متعة الروح، حيث تصلى ومتعة البدن عندما يشتهي الزاد، وصلاتها تساييح بصوت وغير صوت كأن قلبها خلق ليسبح أبداً . . . وزادها إحساسها بأنها أسعدت بثيساً وأشبعت جائعاً ومنحت محروماً ما يمدد كربه وأساه . . . وخيل اليها أن الحياة على هذه الصورة تكفي لاسعادها

حتى ينتهى عمرها وفاتها أنه لا بد لها كائن أن لها فى الحياة رسالة خاصة خلقها الله من أجلها ولا يمكن أن يؤديها سواها . . ومع أنها عازمت أن تعيش كراعية، مع إيمانها بأنه لا رهبة فى الاسلام ولكن ذلك أحب اليها من أن تزوج برجل لا ترى فيه المثل الأعلى للرجولة الباضجة، بعد أن تميز لها مما ترى وتشاهد أن الرجال فى هذا الزمن قلائل .

ولكن - هل مقدورها أن تخالف مشيئة الله . . وهى مؤمنة تؤمن بإيماناً مطلقاً بأن الانسان طوع وإرادة المولى لذلك كان لا بد لها أن تخضع وتقبل أن تزوج برجل تعتقد أنه ليس فى وجودها أفضل منه عقلاً وخلقا، معتمدة على هاتين الميزتين متغاضية عما يسمونه ثروة وجاها، وبدأت تحس من جديد بنشوة الحياة الريفية حياة الاستقرار والعلمانية وإن كانت فشوتها لم تخل من التكبر الجدى فى المسئولية الخطيرة مسئولية الزوجة والأم مسئولية الجهاد الذى ينتظرها . .

وفجأة يحمل اليها البريد رسالة من ليون بفرنسا وأقصوصة من صحيفه فرنسية  
وقد جاء فى الرسالة ما معناه :

« إلى ملهمة أخى ،

أكتب اليك وبودى لو أراك وإن كنت رأيتك كما صورتك  
على أخى وقد كان - رحمه الله - أميناً ودقيقاً فيما ينقل من الصور  
لها بالاك بانسانه لم يحب فى الحياة سواها . . . أستطيع أن أنقل  
صورتك كما هى ماثلة فى خيالى لتأكدى من براعة أخى فى النقل  
والتصوير . . . كلماتك وحركاتك وفناراتك تمثلك أمامى فأشعر  
بوجودك هنيئاً لك يا حبيبى ما نلت

ولكى أعفى نفسى من التحدث عن المرحوم أخى اكتبى بنقل  
آخر ماجاء فى مذكرات أخى وهى آخر كلماته قبل وفاته بساعة  
وهى فاتحة اهداء كتابه الذى وضعه عن الاسلام .

« إلى من فتحت لى أبواب الجنة وهى لا تدرى  
إلى الوحي الذى تنزل على من السماء فى هيكल فتاة تعيش هناك  
فى أرض الانبياء

إلى الفتاة التى تجهل نفسها ، إلى من أحببتها وشئت أن أسعدها  
فأبت حرصاً على تقاليدها

إلى التقية النقية الذكية الحساسة الساذجة ابنة الشرق « جليلة »  
ثم عقيبت الأخت بحديث يفيض لوعة وحزناً على أخيها الذى  
ماش يفكر فى الانسانية كلها ومات يفكر فى فتاة واحدة حبس

الإنسانية فيها إذ فيها خير ما تباهى به الدنيا من فضيلة وإيمان .  
وختمت الرسالة بقولها : إن أخى ترك لك فى وصيته ربع  
ميراثه وهى ثروة طائلة تقدر بأربعة آلاف جنيهه مصرى فرى  
كيف نرسلها لك (أخت محبك - جوليا)

وجاء فى أقصوصة الصحيفة ما معناه :

( توفى فجأة الأستاذ العلامة الفيلسوف « جوبتر » بعد أن  
حبس نفسه فى قصره عاماً لدراسة التاريخ الإسلامى على أثر  
زيارته لمصر ، وقد ترك كتاباً كبيراً فى الدراسات الشرقية ،  
وأوصى بطبعه بنفقته الخاصة ، إذا عاجلته المنية قبل ، على أن  
يوزع مجاناً على محبى هذه الدراسات ، وقد أوصى أن يدفع ربع  
ثروته إلى الجمعية الإسلامية لتكون نواة لبناء مسجد ، وأوصى  
كذلك أن يدفن على طريقة المسلمين وفى قبور المسلمين وأن يقرأ  
على قبره القرآن وأوصى أن لا تفتح وصيته إلا بحضور سفير مصر  
للاشراف على تنفيذ ما جاء فيها ، وأن يرسل إلى ملهمته التى هدته  
إلى اعتناق الإسلام ربع ثروته . .

عظم الخطب على جليلة فرضت شهوراً وراحت تؤجل زفافها  
من شهر إلى شهر ، حتى تهدأ نفسها من أثر الصدمة ، وظلت عاكفة  
على البكاء والآنين حتى هزلت وضمرت وتلاشى تورد وجهها . .



ثم بدأت تفكر في الثروة... أربعة آلاف من الجنهات . . .  
ثروة طائلة وخصوصاً لمثلها

لقد كان الميت نبيلًا و كريماً و وقياً و عظيماً فكيف ترد له جليلة  
و كيف تبادله و قام بوفاء و نبلا بنبل . . . أ يكفي أن تعيش بروحها  
معه . . . إنهم يتحدثون الآن في فرنسا عن ملامته و ميراثها . . .  
فكيف تثبت لهم أنها في تبادله الحب و الإيمان . . . لكيلا تكون  
ابنة الشرق أقل إيماناً من ابن الغرب إذا آمن . . . و فكرت طويلاً  
و طويلاً . . . يغريها المال أحياناً فلا ترى غضاضة من قبول الهبة .  
ثم يمنح ضميرها و تأنف روحها من هذا القبول فيتغير رأيها و تظل  
هكذا تحت تأثير عدة تيارات فكرية . و أخيراً كتبت إلى أخته  
عزيزتي جوليا . . .

لم تقتلني الحياة بشيء و لن تقتلني بشيء كما قتلتني بموت سيدي  
و أستاذي أخيك . لقد خلقتني للحب و المعرفة و الإيمان و ذهب  
فكيف أعيش . . .

ولئن كان حبنا - إيمان الإيمان - كما سماه لا يتأثر بموت بدنينا  
وهو خالد ما عشنا أو متنا . و لكن الكارثة في أن يموت قبل أن  
يسمع آخر كلامي كما سمعت آخر كلامه ، و قد كان عندي ما أقوله  
له قبل أن يغادر بلادى ساحنى الله من أجله .

أما نصيبي في ميراثه فاني ما زلت وسأظل أحرص على قناعاتي  
بفضل ما غرسه في نفسي من قناعة روحية وإيمان أكيد . . لذا  
لا أحب أن أكفر بنعمة ربي فلدي ما يعينني على الحياة كما أريد  
ولما كنت مثله كل البلاد وطني ، وكل الناس إخوتي فاني أتنازل  
عن هذه الثروة سعيدة راضية إلى فقراء فرنسا ومحبي أستاذي  
والذين يترسمون خطاه في تعاليمه ، ولن تحول المسافة التي بيني وبين  
قبره من قراءة القرآن وسوف أحقق وصيته فأقرأ القرآن له في  
مكان وزمان ، راجية الله أن يدخله فسيح جناته

إني أعزيكم فيه ، أما انا فمن يعزيني في قلبي الذي مات يوم ولد  
لى الله ... المخلصة لك ولذا كراه

جليله